كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 149 – الأربعاء 5 كانون٢ (يناير) 2011

رحلةُ إبنِ جُبير

إعداد وتقديم: هاشم شفيق

رسوم وصور القاهرة القديمة

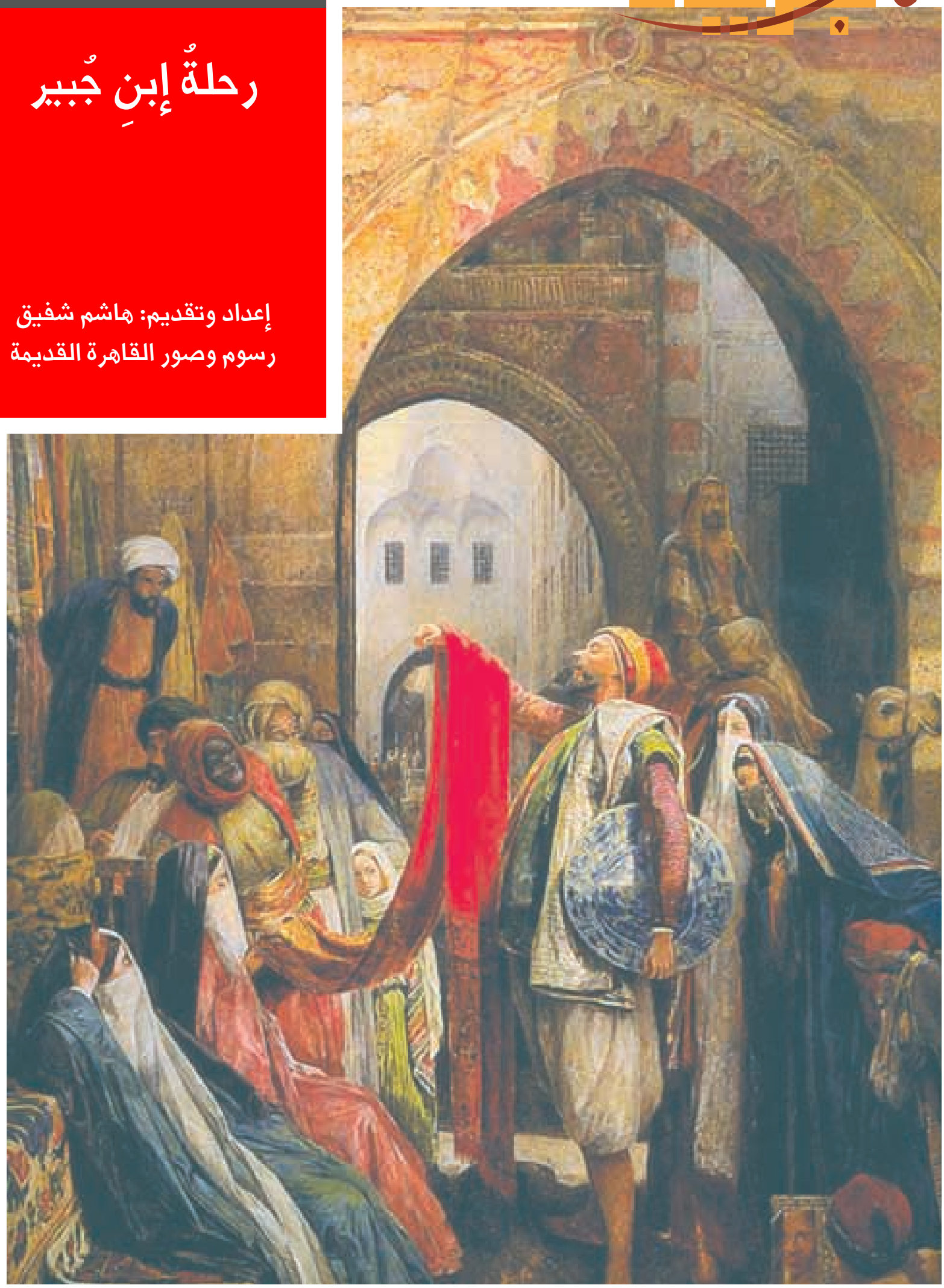

MBI AL JABER Foundation

المؤسسة الراعية

الشريك الثقافي

معالي السيدة إيرينا بوكوفا Irina Bokova، المديرة العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة –اليونسكو– ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابَر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمنظمة اليونسكو للتسامح والديمقراطية والسلام.

إيماناً منها بأهمية نشر المعرفة وتشجيع القراءة ودعم الفن التشكيلي لمواجهة الأزمة الثقافية الخانقة في العالم العربي، **وإسهاماً** في إعداد جيل عصريّ عربي قادر على المساهمة في بناء الحضارة الحديثة والتوصل عبر التربية والعلم والثقافة إلى إدراك الديمقراطية والسلام تمشّياً مع مبادئ الميثاق التأسيسي لليونسكو، تُصدرُ **مؤسسة محمد بن عيسى الجابر** MBI Al Jaber Foundation بالتعاون مع منظمة اليونسكو / UNESCO وبالاشتراك مع كبريات الصحف اليوميّة العربيّة تؤازرها نخبة من كبار الأدباء والكتّاب ومن ورائهم الملايين من القارئين،

كتاب في جريدة

شهرياً وبشكل مجاني ومنتظم هديّةً منها إلى أكبر فئة من القرّاء في جميع العواصم العربية والعرب في العالم.

الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني ل"كتاب في جريدة" الأربعاء الأول من كل شهر على www.kitabfijarida.com

MBI AL JABER Foundation

UNESCO

ملّاح الآفاق

يزخر تراث الأدب العربي برواة الرحلات وساردِيها، بالباحثين والمغامرين ورواد الآفاق، أولئك المدفوعين بلذة الإكتشاف عن مكان جديد وعالم جديد وحياة جديدة غير التي ألفوها واطمأنوا اليها وصارت من لوازم الثبات والقبول والتكرار الذي لا يخرج عن سياق السكينة الى فضاء التحول والحركة، وأفق التمرد والتشوف والمغامرة باتجاه الأباعد والمجاهل غير المرتادة.وقد حفل تراثنا العربي الثمين بأسماء عديدة لرواة حاولوا إستشراف سيرورة الآخر وسبر غور تفاصيله اليومية وتلمس أفعاله بالعين والحس والمشاعر ثم نقل المشاهد الرئيسة والمزايا الإجتماعية من شؤونه ويومياته ومشاغله وأفكاره وأحاسيسه وردود أفعاله إزاء الغريب والوافد الجديد والمسافر، ومن ثم تدوينها في مدوناتهم أو خزنها في ذاكراتهم لغرض كتابتها فيما بعد في سجل سفرهم الحافل بالمخاطرة التي عاصروها والمغامرة التي لمسوها وعاشوها وتذوقوا أهوالها لتحملها نصوص ستكون فيما بعد مرويات إبداعية، تحمل هاجسها السردي الذي أرّخ لنا أساطير المكان الغامض للماضي، ذلك الماضي الذي كانت فيه السيادة المطلقة للشعر والشعراء، أما هؤلاء الكشافون، جوابو الأقاصي، الحالمون بالبعيد وأسراره الدفينة فقد كانوا يتكئون على الشعر ليسندوا مدونتهم ويحتازوا رضا العامة، إنها "رافعة" كان الرحالة القدماء يستفيضون من خلالها في نقل تجاربهم المسنودة دائما بأبيات من الشعر العربي لكي يوصلوا المراد.

الرحالة المعروف إبن جبير هو أحد هؤلاء الذين غامروا وحازوا لذة الأباعد، شأنه شأن إبن بطوطة وإبن فضلان وسليمان التاجر الذين افتضوا الفضاءات واخترقوا الآفاق بحثا عن عوالم مغايرة، تمت عبر البحار وما يحفل به البحر من أحوال وتفاصيل ورهبة ومخاوف وظلمات ومواجهة ما تخبئه السماء من أمطار وأعاصير ورعود وبروق وتقلبات الرياح والأمواج، كل هذا كان يواجه الرحالة العربي القديم وهو الذي لم يكن لديه آنذاك من الزاد إلا القليل واللباس إلا الخفيف والمال إلا ما يقوت به دوامة الرحلة ومصاعبها التي لطالما راحت تبتكر المجهول والخفي والطارئ الذي لم يكن في الحسبان وخصوصا إذا كان الرحالة مثل ابن جبير رجلا زاهدا في الحياة ميالا الى التأمل والسلام والإستبطان والتفكير في أمور الدنيا، طالبا للرؤى وخادما للعلم والمعرفة، متقيا ومتشوقا لمعانقة النور، مؤمنا بجمال النور العلوي، وساعيا الى مكان اللّه، حاجا الى بيته في رحلته العجيبة من الأندلس الى المشرق العربي، عبر الواسطة الوحيدة آنذاك الباخرة، التي كانت تطوي به المسافات والمرافئ والمدن والدساكر والثغور، في رحلة شاقة ومشوقة، ترينا كيف كانت الديار أيامذاك، كيف هي العواصم القديمة، كيف هي الأزقة والأسواق والطرقات، وتخبرنا كيف هي الأحوال والمباذل والعادات والتقاليد وطرائق العيش والحياة لدى العامة والطبقات الحاكمة من الأمراء والسلاطين وأبناء الذوات، وكيف كانت القوانين والأعراف في بلداننا من فصول تلك الأزمان، وكيف كان يتصرف أسلافنا وشرطتنا وحاكمنا مع بعضهم البعض ومع الزائر والوافد العربي الذي هو مثلك ويتكلم لغتك وينتسب الى دينك.. كل هذا سنراه في مدونة إبن جبير الذي استجوب الآفاق ورحل في الزمان والمكان.

ولد أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي في ٥٣٩ – وتوفي ٦١٤ – هجرية أي ١١٤٤ – ١٢١٧ ميلادية في بلنسية، وتلقى العلوم من أبيه في شاطبة وحفظ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش، في مسقط رأسه بالأندلس.

كان ابن جُبَير من علماء الأندلس المرموقين الذين ألموا وتبحّروا بعلوم الفقه والحديث، هذا فضلا عن كتاباته في الأدب والشعر. وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" بأنه: "أديب بارع، شاعر مُجيد، سرّي النفس، كريم الأخلاق"، لكن شهرته لم تقم إلا على كتابه هذا المعروف بـ"رحلة إبن جُبير" الذي وضعه بعد رحلات ثلاث الى الشرق أهمها رحلته هذه التي استغرقت ثلاث سنوات، بدأها في اليوم الثالث من شباط ١١٨٢ م، وختمها في يوم الخامس والعشرين من شهر نيسان ١١٨٣ م، ليقدم للبشرية وعلم الجغرافيا وأدب الرحلات هذه التحفة الأدبية من جولته الجمالية في مسار التاريخ.

هنا سيجد القارئ الكريم مختارات منتقاة بدقة وعناية، أولينا فيها الإهتمام للمشاهد الأساسية من المدن الهامة والحواضر العريقة، وانتقينا ما هو مثير في الرحلة، ما يمنح القارئ بعداً جديداً لخياله، بعداً ممتزجاً بالمتعة والدهشة، واستثنينا ما هو نافل ومكرر وغير مفيد، بالأخص على الصعيد السياسي المتعلق بالتطرف الديني والمذهبي والعنصري الذي لا يؤدي في هذا الزمان أوغيره من الأزمنة إلا الى الفتنة والإحتراب والخراب الإنساني.

هاشم شفيق

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه – محامون"

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
سنتر دلّفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 1(0) 961+
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

عدد رقم 149
(5 كانون ثاني 2011)

الصحف الشريكة

الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام اللّه
الأيام – المنامة
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض– الرياض
الشعب– الجزائر
الشعب– نواكشوط
الشمس– طرابلس الغرب
الصباح– بغداد
العرب– تونس، طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القاهرة – القاهرة
القدس العربي – لندن
النهار – بيروت
الوطن – مسقط

الهيئة الإستشارية

أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
أحمد ولد عبد القادر
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد اللّه الغذامي
عبد اللّه يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول.

التخطيطات والصور المنشورة مختارة من
القاهرة التاريخية – شارع المعز لدين اللّه – وزارة الثقافة – القاهرة

رحلةُ إبنِ جُبير
– مقتطفات –

إعداد وتقديم: هاشم شفيق

تذكرة بالأخبار، عن انتفاقات الأسفار

ابتُدِئ بتقييدها المُوفي ثلاثين لشَهر شوّال سنة ثمان وسبعين وخمس مئة على مَتْن البحر بمقابلة جبل شُلَيْر عرّفَنا اللّـه السلامة بمنّ[1].

وكان انفصالُ أحمد بن حسّان ومحمّد بن جُبير من غَرْناطة[2]، حَرَسَها اللّـه، للنّيّة الحجازية المباركة، قَرَنَها اللّـه بالتيسير والتسهيل وتعريف الصّنع الجميل، أولَ ساعة من يوم الخميس الثامن لشوّال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعجمي. وكان الاجتياز على جيّان[3] لقضاء بعض الأسباب، ثمّ كان الخروج منها أولَ ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوّال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبرير المذكور أيضاً.

وكانت مرحلتنا الأولى منها إلى حصن القَبْذاق ثمّ منه إلى حصن قَبْرة[4] ثم منه إلى مدينة إسْتِجَة ثم منها إلى حصن أُشُونة[5] ثم منه إلى حصن أَرْكُش ثم منه إلى قرية تُعْرَف بقرية القشمة من قرى مدينة ابن السّليم ثم منها إلى جزيرة طَرِيف، وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرّخ.

فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني، يسّر اللّـه علينا في عبور البحر إلى قصر مَصْمودَة[6] تيسيراً عجيباً، والحمد للّـه، ونهضنا منه إلى سِبْتَة غدوةَ يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه، وألفينا بها مركباً للروم الجَنَويّين مُقلِعاً إلى الإسكندريّة بحَوْلِ اللّـه، عزّ وجلّ، فسَهّلَ اللّـه علينا في الرّكوب فيه.

وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وبموافقة الرابع والعشرين من فبرير المذكور، بحول اللّـه تعالى وعونه، لا ربّ غيره. وكان طريقنا في البحر محاذياً لبرّ الأندلس. وفارقناه يوم الخميس السادس لذي القعدة بعده عندما حاذينا دانِيَة. وفي صبيحة يوم الجمعة السابع من الشهر المذكور آنفاً قابلنا برّ جزيرة يابسة[7] ثم يوم السبت بعده قابلنا برّ جزيرة مَيُورَقة ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة مَنُورَقة. ومن سِبْتَة إليها نحو ثمانية مجارٍ، والمجرى مئة ميل. وفارقنا برّ هذه الجزيرة المذكورة، وقام معنا برّ جزيرة سَردانيَة أول ليلة الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور، وهو الثامن من مارس، دفعةً واحدةً على نحو ميلٍ أو أقلّ. وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة نحو الأربع مئة ميل، فكان قطعاً مستغرباً في السرعة.

وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذي القعدة المذكور والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضاً، وفي الربع الباقي منها، فارقنا برّ سردانية المذكورة، وهو برّ طويل جَرَينا بحذائه نحو المئتي ميل. ومنتهى دور الجَزيرة، على ما ذُكر لنا، إلى أزيد من خمس مئة ميل، ويسّر اللّـه علينا في التخلّص من بحرها، لأنّه أصعب ما في الطريق، والخروج منه يتعذّر في أكثر الأحيان، والحمد للّـه على ذلك.

وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هالَ[8] لها البحر وجاء معها مطر تُرسِله الرّياح بقوّة، كأنّه شآبيبُ[9] سِهام. فعظم الخطب واشتدّ الكرب وجاءنا الموج من كلّ مكان أمثال الجبال السائرة. فبقينا على تلك الحال الليلَ كلّه، واليأس قد بلغ منّا مبلغَه، وارتجينا مع الصّباح فُرْجة تخفّف عنّا بعضَ ما نزل بنا، فجاء النهار، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة، بما هو أشدُّ هولاً وأعظم كرباً، وزاد البحر اهتياجاً وارْبدّتِ[10] الآفاقُ سواداً، واستَشرَتِ[11] الرّيح والمطر عصوفاً، حتى لم يثبت معها شراع. فلُجئ إلى استعمال الشُّرُع الصّغار. فأخذت الرّيحُ أحدها ومزّقَته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشُّرُع فيها، وهي المعروفة عندهم بالقَرِيّة. فحينئذٍ تمكّن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى اللّـه عزّ وجلّ. وأقمنا على تلك الحال النهارَ كلّه. فلمّا جنّ الليل فترت الحال بعضَ فُتور، وسرنا في هذه الحال كلّها بريح الصّواري سيراً سريعاً.

وفي ذلك اليوم حاذينا برّ جزيرة صقلّية. وبتنا تلك الليلة، التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور، متردّدين بين الرجاء واليأس. فلمّا أسفَرَ الصّبحُ نشَرَ اللّـهُ رحمتَه، وأقشعَت السحابُ وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في السكون البحرُ. فاستبشر الناسُ وعاد الأنسُ وذهب اليأس، والحمد للّـه الذي أرانا عظيم قدرته، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمداً يكون كفاءَ[12] لمنّتِه ونعمته.

وفي هذا الصباح المذكور ظهر لنا برّ صقلّية وقد أجزنا أكثرهُ ولم يبق منه إلاّ الأقلّ. وأجمع مَن حضر من رؤساء البحر من الروم وممن شاهد الأسفار والأهوال في البحر من المسلمين أنّهم لم يُعاينوا قطّ مثل هذا الهوْل فيما سلف من أعمارهم، والخبر عن هذه الحال يصغُر في خُبْرِها.

وبين البرّين المذكورين برّ سَردانية وبرّ صقلّية نحو الأربع مئة ميل. واستصحبنا من برّ صقلّية أزيد من مئتي ميل، ثم تردّدنا بحذائه بسبب سكون الريح. فلمّا كان عصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور أقلعنا من الموضع الذي كنّا أرسينا فيه، وفارقنا البرّ المذكور أول تلك الليلة. وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة، وظهر لنا إذ ذاك الجبل الذي كان فيه البُركان[13]، وهو جبل عظيمٌ مُصْعد في جو السماء قد كساه الثلج. وأُعلمنا أنّه يظهر في البحر مع الصّحْو على أزيد من مسيرة مئة ميلٍ. فأخذنا مُلجّجين[14] وأقربُ ما نؤمّله من البرّ إلينا جزيرة أقْريطش[15]، وهي من جزائر الروم، ونظرُها[16] إلى صاحب القسطنطينية، وبينها وبين جزيرة صقلّية مسيرة سبع مئة ميل، واللّـه كفيل بالتيسير والتسهيل بمَنّه. وفي طول هذه الجزيرة، جزيرة أقريطش المذكورة، نحو من ثلاث مئة ميل.

وفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور، وهو الثاني والعشرون من شهر مارس، حاذينا البرّ المذكور تقديراً لا عياناً. وفي صبيحة اليوم المذكور فارَقْناه متوجّهين لقَصْدنا. وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ستّ مئة ميل أو نحوها.

وفي صبيحة يوم الأربعاء السادس والعشرين منه ظهر لنا البرّ الكبير المتّصل بالإسكندرية المعروف ببرّ الغرب، وحاذينا منه موضعاً يعرف بجزائر الحَمّام[17] على ما ذُكر لنا، وبينه وبين الاسكندرية نحو الأربع مئة ميل على ما ذُكر لنا. فأخذنا في السير.

منار الاسكندرية

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المَنارُ الذي قد وضعه اللّـه عزّ وجلّ على يدي من سخّر لذلك آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندرية، يظهر على أزيد من سبعين ميلاً. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوّ سموّاً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطّرْف، الخبرُ عنه يضيق والمشاهدة له تتّسع.

ذَرَعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً، ويُذكرُ أنّ في طوله أزيد من مئة وخمسين قامة. وأمّا داخله فمرأى هائل، اتّساع معارج[18] ومداخل وكثرة مساكن، حتى إنّ المتصرّف فيها والوالج في مسالكها ربّما ضلّ. وبالجملة لا يحصّلها القول، واللّـه لا يُخليه من دعوة الإسلام ويبقيه.

وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرّك الناس بالصّلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجّة المؤرّخ وصلّينا في المسجد المبارك المذكور. وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف.

مناقب الإسكندرية

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمَحارسُ[19] الموضوعة فيه لأهل الطبّ والتعبّد، يَفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحدٍ منهم مسكناً يأوي إليه ومدرّساً يعلّمه الفنّ الذي يريد تعلّمه وإجْراءَ[20] يقوم به في جميع أحواله. واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج مَن مرض منهم ووكّل بهم أطبّاء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خُدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رُتّب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمَرْضى.

وفي يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثاني من النيل في مركب تعدية أيضاً بموضع يُعْرَف بدُجْوة، وذلك وقت الغداة الصغرى. وكان نزولنا في مصر بفُندق أبي الثناء في زقاق القناديل

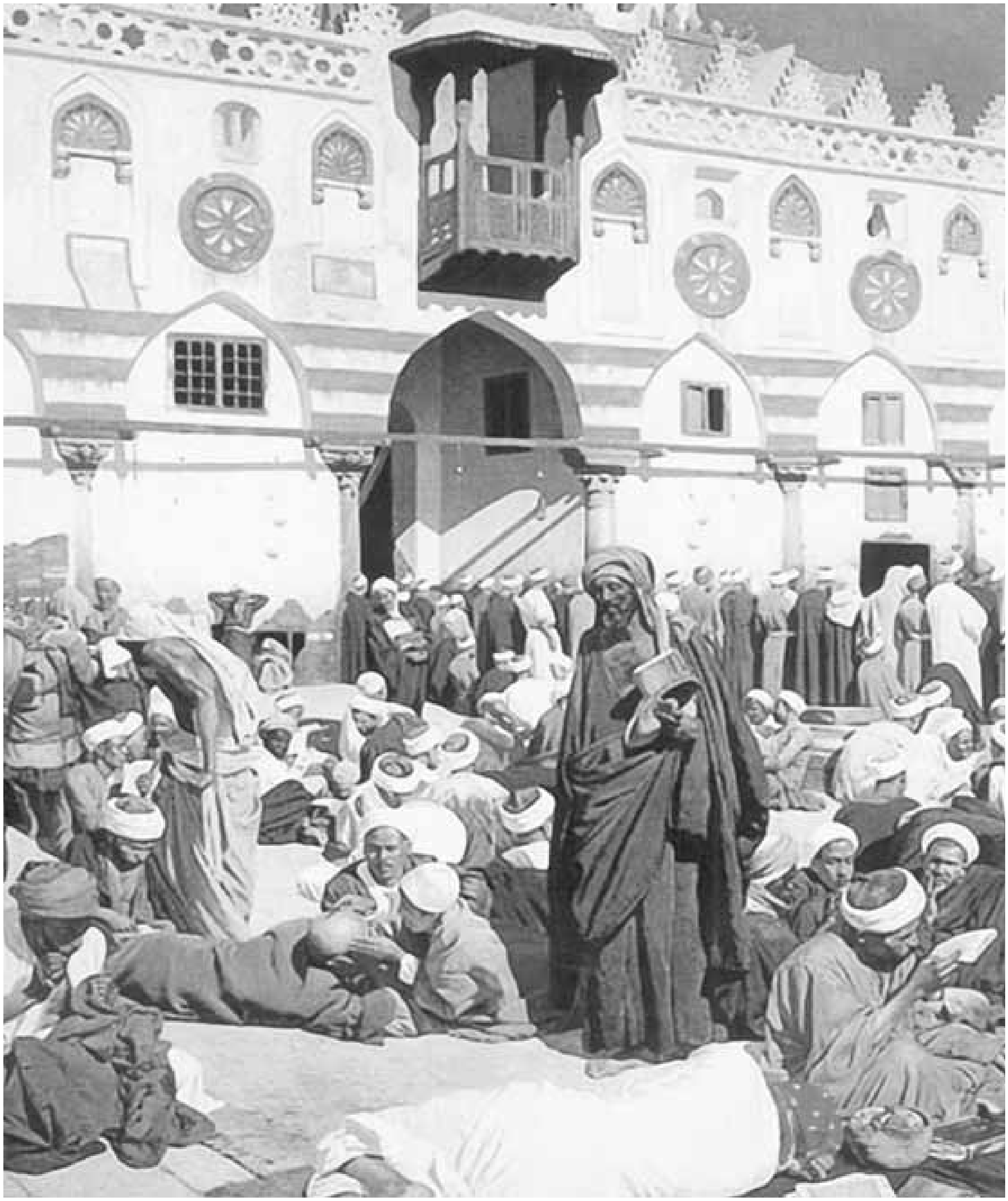

بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضي اللّـه عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور.

ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارهما العجيبة

فأوّل ما نبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها اللّـه عزّ وجلّ:

فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي اللّـه عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بُني عليه بُنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به، مُجلّل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العُمُد الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك، قد وُضعَ أكثرها في أتوار[٢١] فضّة خالصة ومنها مذهبة، وعُلقت عليه قناديل فضّة، وحُفّ أعلاه كلّه بأمثال التفافيح ذهباً في مصنع[٢٢] شبيه الروضة يقيّد الأبصارَ حسناً وجمالاً، فيه من أنواع الرّخام المجزّع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيّله المتخيّلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون.

والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنّق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها. والأستار البديعة الصنعة من الدّيباج معلّقة على الجميع.

ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص[٢٣] كلّها كأنّه المرآة الهنديّة الحديثة الصقل. وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسّحهم بالكسوة التي عليه وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسّلين إلى اللّـه سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرّعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد. والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول، نفعنا اللّـه ببركة ذلك المشهد الكريم. وإنّما وقع الإلماع بنُبذة من صفته مستدلاً على ما وراء ذلك إذ لا ينبغي لعاقل أن يتصدّى لوصفه لأنّه يقف موقف التقصير والعجز.

وبالجملة فما أظنّ في الوجود كلّه مصنعاً أحفل منه، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع، قدّس اللّـه العضو الكريم الذي فيه بمنّه وكرمه.

وفي ليلة اليوم المذكور بتنا بالجبّانة المعروفة بالقَرافَة، وهي أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات اللّـه عليهم، وأهل البيت رضوان اللّـه عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهّاد والأولياء ذوي الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة. وإنما ذكرنا منها ما أمكَنَتْنا مشاهدته. فمنها قبر ابن النبي صالح، وقبر رُوبيل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّـه عليهم أجمعين، وقبر آسية امرأة فرعون رضي اللّـه عنها، ومشاهد أهل البيت رضي اللّـه عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال، وخمس من النساء. وعلى كلّ واحد منها بناء حَفْل. فهي بأسرها روضات بديعة الإتقان عجيبة البنيان، قد وُكّلَ بها قَوَمَة يسكنون فيها ويحفظونها. ومنظرها منظر عجيب، والجرايات متّصلة لقُوّامها في كل شهر.

قلعة القاهرة

وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصنٌ يتصل بالقاهرة حصين المَنَعَة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمدّ سورَه حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخّرون في هذا البنيان والمتَوَلّون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرُّخام ونحت الصخور العظام وحفر الخَنْدق المُحدِق بسور الحصن المذكور، وهو خندق يُنقَرُ بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار، العُلوج الأسارى من الروم، وعددهم لا يُحصى كثرة، ولا سبيل أن يُمتهن في ذلك البنيان أحدٌ سواهم.

وللسلطان أيضاً بمواضع أُخر بنيان والأعلاج يخدمونه فيه، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامّة مُرَفَّهٌ عن ذلك كلّه ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد.

مستشفى المجانين

وممّا شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة. وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتّساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجّراً واحتساباً[٢٤] وعيّن قيّماً من

أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها. وَوُضِعت في مَقاصير ذلك القصر أسرّة يتّخذها المرْضى مضاجع كاملةَ الكُسى. وبين يدي ذلك القيّم خَدَمَة يتكفلون بتفقّد أحوال المرضى بكرةً وعشيّةً، فيقابَلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم.

وبإزاء هذا الموضع موضعٌ مُقتَطَعٌ للنساء المرضى. ولهنّ أيضاً مَن يكفُلُهنّ. ويتّصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متّسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابسَ للمجانين.

ولهم أيضاً من يتفقّد في كلّ يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلّع هذه الأحوال كلّها بالبحث والسّؤال ويؤكّد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد. وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه.

مسجد ابن طولون

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويُحلّقون[٢٥] فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كلّ شهر. ومن أعجب ما حدّثنا به أحد المتخصّصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدّعة والعافية، وتفرّغوا لعبادة ربّهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضلَ مُعينٍ على الخير الذي هم بسبيله.

ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية[٢٦] يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء المُوحّدين[٢٧] عليها وعلى الجهات الشرقية، والله أعلم بغيبه، لا إله سواه.

معجزة البناء

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة الأهرام القديمة، المعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربّعة الشكل، كأنّها القباب المضروبة قد قامت في جوّ السماء، ولا سيما الاثنان منها، فإنهما يَغَصّ

الجوّ بهما سُموّاً، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثاني ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة. قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة. ورُكّبت تركيباً هائلاً بديع الإلصاق دون أن يتخللّها ما يعين على إلصاقها، محدّدة الأطراف في رأي العين، وربّما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة فَتُلْفى أطرافها المحدّدة كأوسع ما يكون من الرّحاب، لو رام أهل الأرض نقضَ بنائها لأعجزهم ذلك.

للناس في أمرها اختلاف: فمنهم مَن يجعلها قبوراً لعاد وبنيه، ومنهم مَن يزعم غير ذلك. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلاّ الله عزّ وجلّ.

ولأحد الكبيرين منها باب يُصْعَد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ويُدْخلُ منه إلى بيت كبير سعتُه نحو خمسين شبراً وطوله نحو ذلك. وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوّفة شبه التي تسميها العامة البِيلة[٢٨] يقال إنها قبر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ودون الكبير هرم سعتُه من الركن الواحد إلى الركن الثاني مئة وأربعون خطوة. ودون هذا الصغير خمسة صغار وثلاثة متصلة والاثنان على مقربة منها متصلان.

وعلى مقربة من هذه الأهرام بمقدار غَلْوَة[٢٩] صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدميّ هائل المنظر، وجهُه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل، تعرف بأبي الأهوال.

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه. وله أيضاً بالإسكندرية جامع آخر هو مُصَلّى الجمعة للمالكيين. وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراقُ الحادث بها وقتَ الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين[٣٠]، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة، وأكثرها الآن مستجَدّ والبنيان بها متّصل. وهي مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها، وعلى مقربة منها ظاهرة تدلّ على عظمة اختطاطها فيما سلف.

روضة النيل

وعلى شط نيلها مما يلي غربيها، والنيل معترض بينهما، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة. لها كلّ يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يُجتَمَعُ إليها. ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعَلاليّ مُشْرِفة وهي مجتمع اللّهو والنّزهة، وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مَخرج له. وبهذه الجزيرة مسجد جامع يُخْطَبُ فيه. ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يُعْتَبر فيه قَدْر زيادة النيل عند فيضه كلّ سنة. واستشعار ابتدائه في شهر يونيه، ومعظم انتهائه أُغُشْت[٣١]، وآخره أول شهر أكتوبر. وهذا المقياس عمود رُخام أبيض مُثمّن في موضع

ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهو مُفصّل على اثنتين وعشرين ذراعاً مقسّمة على أربعة وعشرين قسماً تعرف بالأصابع. فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفي الماء تسع عشر ذراعاً منغمرة فيه فهي الغاية عندهم في طيب العام. وربّما كان الغامر منه كثيراً بعموم الفيض. والمتوسّط عندهم ما استوفى سَبْعَ عشرة ذراعاً، وهو الأحسن عندهم في الزيادة المذكورة. والذي يستحقّ به السلطان خراجه في بلاد مصر ست عشرة ذراعاً فصاعداً، وعليها يُعْطي البشارة الذي يراعي الزيادة في كل يوم والزيادةَ في أقسام الذراع المذكورة ويُعْلِمُ بها مُياوَمَة حتى تستوفي الغاية التي يُقْضَى بها. وإن قصّر عن ستّ عشرة ذراعاً فلا مَجْبى للسلطان في ذلك العام ولا خراج.

وذُكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبرَ كضعب الأحبار رضي اللّـه عنه. وفي صدر الجيزة المذكورة أحجار رُخام قد صُوّرت فيها التماسيح، فيقال: إنّ بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال عُلْواً وسُفلاً، واللّـه أعلم بحقيقة ذلك.

شهر محرم سنة تسع وسبعين[٣٢]، عرفنا اللّـه يمنها وبركتها

استهلّ هلاله ليلة الثلاثاء، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل، ونحن بمصر، يسّر اللّـه علينا مرامنا.

وفي صبيحة يوم الأحد السادس من محرم المذكور كان انفصالنا من مصر وصعودنا في النيل على الصعيد قاصدين إلى قُوص، عرفنا اللّـه عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمنذه، ووافق يوم إقلاعنا المذكور أولَ يوم من مايه[٣٣] بحول اللّـه عزّ وجلّ. والقرى في طريقنا متّصلة في شطّي النيل والبلاد الكبار، حسبما يأتي ذكره، إن شاء اللّـه. فمنها قرية تعرف بأسْكَر[٣٤] في الضفّة الشرقية من النيل مياسرة للصاعد فيه. ويُذكر أنّ فيها كان مولد النبيّ موسى الكليم، صلّى اللّـه على نبيّنا وعليه، ومنها ألْقَتْه أمّه في اليَمّ، وهو النّيل حسبما ذُكر.

وعاينّا أيضاً بغربي النّيل مُياماً لنا، وذلك كلّه يوم إقلاعنا المذكور وفي الثاني منه، المدينةَ القديمة المنسوبة ليوسف الصدّيق[٣٥] صلّى اللّـه عليه وسلّم، وبها موضع السجن الذي كان فيه، وهو الآن يُنْقَض ويُنْقَل أحجاره إلى القلعة المبتَناة الآن على القاهرة، وهو حصن حصين المَنَعة.

وبهذه المدينة المذكورة مخازن الطعام التي اختزنها يوسف، صلّى اللّـه عليه وسلّم، وهي مُجَوّفة على ما يُذْكَر.

ومنها الموضع المذكور بمُنيَة ابن الخصيب وهو بلد على شطّ النيل ميامناً للصاعد فيه كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن، اجتزنا عليه ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور، وهو الثامن من يوم إقلاعنا من مصر، لأنّ الريح سكنت عنّا فتربّصنا في الطّريق.

ولو ذهبنا إلى رسم كلّ موضع يعترضنا في شطّي النيل يميناً وشمالاً لضاق الكتاب عنه، لكن نقصد من ذلك إلى الأكبر الأشهر.

وقابلنا على مقربة من هذا الموضع مياسراً لنا المسجد المبارك المنسوب لإبراهيم خليل الرحمن، صلوات اللّـه عليه وعلى نبينا، وهو مسجد مذكور مشهور معلوم بالبركة مقصود، ويقال: إن بفنائه أثر الدابة التي كان يركبها الخليل، صلّى اللّـه عليه وسلّم.

ومنها موضع يعرف بأنْصِنَا مياساً لنا، وهي قرية فسيحة جميلة بها آثار قديمة، وكانت في السالف مدينة عتيقة، وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفةً من حمل صخره إلى القاهرة، فنُقِل بأسره إليها.

وفي صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور، وهو التاسع من إقلاعنا من مصر، اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المُقْلَة وهو بالشّطّ الشرقيّ من النيل مياساً للصاعد فيه، وهو نصف الطريق إلى قُوص، من مصر إليه ثلاثة عشر بريداً، ومنه إلى قوص مثلها.

وممّا يجب ذكره على جهة التعجّب أنّ من حيّز مصر في شطّ النيل الشرقيّ مياساً للصاعد فيه حائطاً متّصلاً قديم البنيان، منه ما قد تهدّم ومنه ما بقي أثره، يتمادى على الشطّ المذكور إلى أُسوان آخر صعيد مصر، وبين أُسوان وبين قُوص ثمانية بُرُد. والأقوال في أمر هذا الحائط تتشعّب وتختلف، وبالجملة فشأنه عجيب ولا يعلم سرّه إلاّ اللّـه عزّ وجلّ. وهو يعرَفُ بحائط العجوز، ولها خبر مذكور، أظنّ هذه العجوز هي الساحرة المذكورة خبرها في المسالك والممالك التي كانت لها المملكة بها مدة.

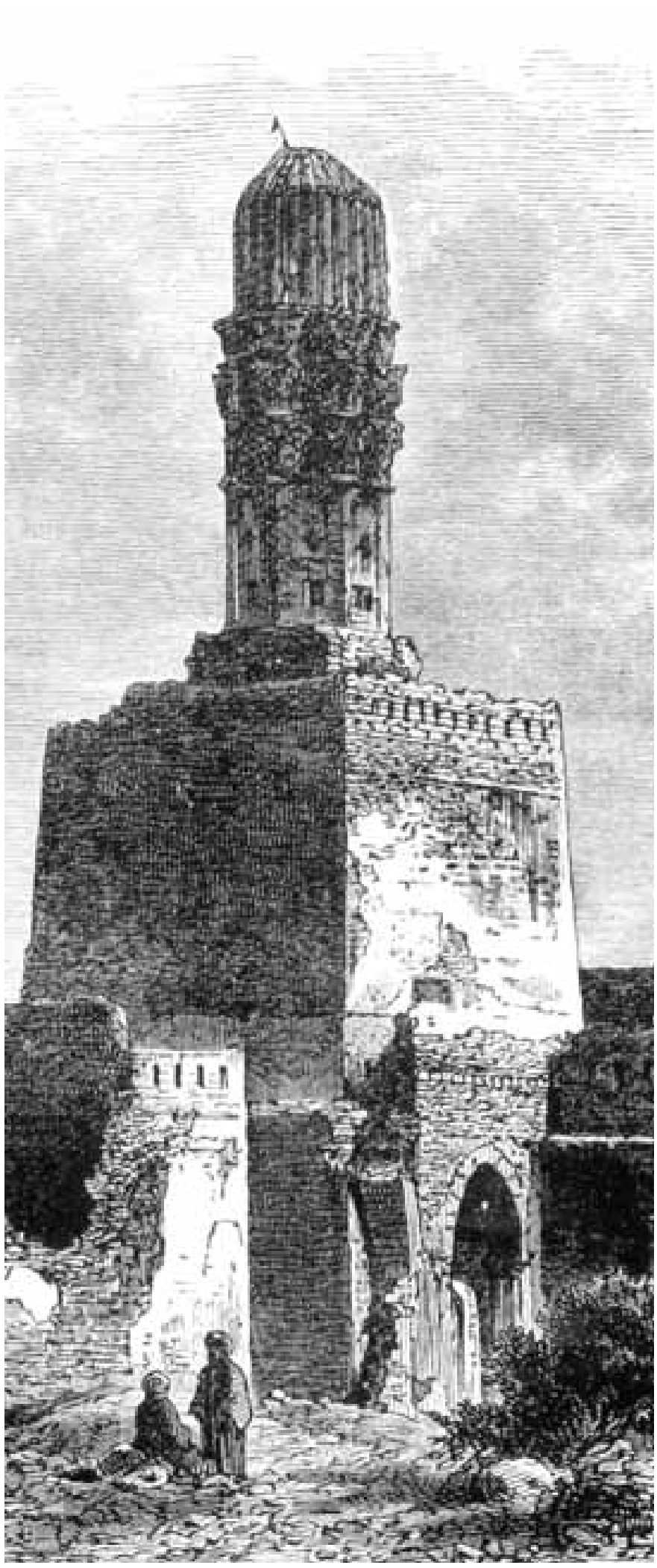

أهوال بحر فرعون

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور، وهو الثامن عشر من يوليه، ركبنا الجلبة للعبور إلى جُدّة. فأقَمْنا يومَنا ذلك بالمرْسى لركود الريح ومَغيب النواتيّة، إلى النفس منه. فأقمنا بين هواء يُذيب الأجسام وماء يَشْغَل المعدة عن اشتهاء الطّعام، فما ظَلَمَ مَنْ غَنّى عن هذه البلدة بقوله:

ماءٌ زُعاقٌ وَجَوٌّ كُلّه لَهَبُ

فالحلول بها من أعظم المكاره التي حُفّ بها السبيل إلى البيت العتيق، زاده اللّـه تشريفاً وتكريماً، وأعظمَ أجورَ الحُجّاج على ما يكابدونه ولا سيما في تلك البلدة الملعونة، ومما لَهِج الناس بذكره قبائحها، حتى يزعمون أن سليمان ابن داود، على نبينا وعليه السلام، كان اتخذها سجناً للعفارتة، أراح اللّـه الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام، وهي السبيل التي من مصر على عَقَبَةِ أَيْلَة إلى المدينة المقدّسة، وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يميناً وجبل الطّور المعظّم يساراً، لكن للإفرَنْج بمقربة منها حصن مندوب[٣٦] يمنع الناس من سلوكه، واللّـه ينصر دينه ويعزّ كلمته بمنّه.

فتمادى سيرنا في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة المَهَبِّ. فلمّا كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس ونحن قد استبشرنا برؤية الطّير المحلّقة من برّ الحجاز، لمَعَ برق من جهة البرّ المذكور، وهي جهة الشرق، ثم نشأ نَوْء أظلم له الأفُق إلى أن كسا الآفاق كلّها، وهبّت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعاً وراءه، وتمادى عُصوف الرّياح واشتدّت حُلْكة الظلمة وعمت الآفاق، فلم نَدْرِ الجهة المقصودة منها، إلى أن ظهر بعض النجوم فاستُدلّ بها بعض الاستدلال وحُطّ القِلْع إلى أسفل الدّقَل، وهو الصّاري.

وأقَمْنا لَيلتَنا تلك في هَوْل يؤذِن باليَأس، وأرانا بحر فرعون[٣٧] بعضَ أهواله الموصوفة، إلى أن أتى اللّـه بالفرج مقترناً مع الصباح. فهدأ قياد الرّيح وأقشع الغيمُ وأصْحَت السماء ولاح لنا برّ الحجاز على بُعْد لا نُبصرُ منه إلاّ بعض جباله، وهي شرق من جُدّة، زعم رُبّان المركب، وهو الرّائس، أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبرّ جُدّة يومين، واللّـه يُسهّل لنا كلّ صعب ويُيسّر لنا كلّ عسير بعزّته وكرمه.

فجرَينا يومَنا ذلك، وهو يوم الخميس المذكور، بريح رُخاء طيبة، ثم أرسينا عشيّةً في جزيرة صغيرة في البحر على مقربة من البرّ المذكور بعد أن لقِينا شِعاباً كثيرة يكثر فيها الماء ويَضْحَل[٣٨] علينا، فتخللنا أثناءها على حذر وتحفّظ.

وكان الرّبّان بصيراً بصنعته حاذقاً فيها، فخلصنا اللّـه منها، حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة، ونزلنا إليها وبِتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع الأول المذكور، وأصبح الهواء راكداً والرّيح غير مُتنفّسة إلاّ من الجهة التي لا تُوافقنا، فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور. فلمّا كان يوم السّبت الموفّي ثلاثين تنفّست الريح بعض التنفّس، فأقلعنا بذلك النّفَس نسيرُ سيراً رُوَيداً. وسكن البحر حتى خُيّل لناظره أنّه صحن زجاج أزرق. فأقمنا على تلك الحال نرجو لطيف صنع اللّـه عزّ وجلّ.

وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقَة السّفُن، فعصمنا اللّـه عزّ وجلّ من فأل اسمها المذموم، وله الحمد والشكر على ذلك.

شهر ربيع الآخر، عرفنا اللّـه بركته

استهلّ هلاله ليلة السبت ونحن بالجزيرة المذكورة ولم يظهر تلك الليلة للأبصار بسبب النّوء، لكن ظهر في الليلة الثانية كبيراً مرتفعاً، فتحقّقنا إهلاله ليلة السبت المذكور، وهو الثالث والعشرون من شهر يوليه، وفي عشيّ يوم الأحد ثانيه أرسينا بمرسى يعرف بأبحر، وهو على بعض يوم من جدة، وهو من أعجب المَراسي وضعاً، وذلك أن خليجاً من البحر يدخل إلى البرّ

والبرّ مُطيف به من كلتا حافتيه فتُرسى الجلاب منه في قرارة مُكَنّة[39] هادئة.

فلمّا كان سَحَر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة اللّـه تعالى بريح فاترة، واللّـه المُيَسّر لا ربّ سواه. فلمّا جنّ الليلُ أرسينا على مقربة من جُدّة وهي بمَرْأى العين منّا. وحالت الرّيح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها، ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشّعاب والتفافها. وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرّؤساء والنّوَاتيّة في التصرّف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً، يُدخلونها على مضايق ويُصرّفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرّطْب العِنان[40] السّلِس القِياد، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه.

وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور، وهو السادس والعشرون من شهر يوليه، كان نزولنا بجُدّة حامدين للّـه عزّ وجلّ وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عاينّاه في تلك الثمانية الأيام طولَ مُقامنا على البحر، وكانت أهوالاً شتّى، عصَمَنا اللّـه منها بفضله وكرمه، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضَعْف عُدّة المركب واختلالها واقتصامها[41] المرة بعد المرة عند رفع الشّراع أو حَطّه أو جَذْب مِرْساةٍ من مرَاسيه، وربّما سنَحَت[42] الجلبة بأسفلها على شِعب من تلك الشّعاب أثناء تخلّلها فنسمع لها هدّاً يُؤذِنُ باليأس، فكنّا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً، والحمد للّـه على ما مَنّ به من العصمة وتكفّل به من الوقاية والكفاية حمداً يبلغ رضاه ويستهدي المَزيد من نعماه، بعزته وقدرته، لا إله سواه.

وكان نزولنا فيها بدار القائد عليّ، وهو صاحب جُدّة من قِبَل أمير مكة المذكور، في صَرْح من تلك الصّرُوح الخُوصيّة التي يبنونها في أعالي ديارهم ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها. وعند احتلالنا جُدّة المذكورة عاهدنا اللّـه عزّ وجلّ، سروراً بما أنعم اللّـه به من السلامة، ألاّ يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون إلاّ إن طرَأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق، واللّـه وليّ الخِيرة في جميع ما يَقضيه ويُسَنّيه[43] بعزّته.

صفة جدة

وجُدّة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخْصَاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغُرَف، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أذَى الحَرّ. وبهذه القرية آثار قديمة تدلّ على أنها كانت مدينة قديمة، وأثر سُورها المُحدِق بها باقٍ إلى اليوم. وبها موضع فيه قبّة مشيّدة عتيقة يُذْكر أنّه كان منزل حَوّاء أمّ البَشَر، صلّى اللّـه عليها، عند توجّهها إلى مكّة، فبُني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله، واللّـه أعلم بذلك.

وفيها مسجد مبارك منسوب إلى عمر بن الخطّاب، رضي اللّـه عنه، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الآبنوس يُنسب أيضاً إليه، رضي اللّـه عنه، ومنهم من نسبه إلى هارون الرشيد، رحمة اللّـه عليه.

وأكثر سُكّان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشْرَاف عَلَويّون: حَسَنيّون وَحُسَيْنيّون وجَعْفَريّون، رضي اللّـه عن سلَفِهم الكريم. وهم من شظف العيش بحالٍ يتصَدّع له الجماد إشفاقاً، ويَستَخدِمون أنفسَهُم في كلّ مهنَة من المِهَن: من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حَطَب يَحتَطِبونه. وربّما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن، فسبحان المُقدّر لما يشاء. ولا شكّ أنهم أهل بيت ارْتضى اللّـه لهم الآخرة ولم يرتضِ لهم الدنيا. جعلنا اللّـه ممن يَدين بحُبّ أهل البيت الذين أذهب عنهم الرّجْسَ وطهّرَهم تطهيراً.

من جدة إلى الحرم الشريف

وفي عَشِيّ يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور، وهو الثاني من شهر أُغُشْت، كان انفصالنا من جدة بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضاً، وثُبّتت أسماؤهم في زمام[44] عند قائد جدة عليّ بن مُوَفق، حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مُكثر بن عيسى المذكور، وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن عليّ، رضوان اللّـه عليهما، لكنّه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم، رضي اللّـه عنهم.

وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا القَرين مع طلوع الشمس. وهذا الموضع هو منزل الحاجّ ومحطّ رحالهم ومنه يُحْرِمون وبه يُريحون اليوم الذي يصبحونه. فإذا كان في عشية رَفَعُوا وأسْرَوا ليلتَهم وصبّحوا الحرم الشريف، زاده اللّـه تشريفاً وتعظيماً. والصادرون من الحجّ ينزلون به أيضاً ويُسْرُون منه إلى جدة. وبهذا الموضع المذكور بئر مَعِينة عذبة، والحاجّ بسببها لا يحتاجون إلى تزوّد الماء غير ليلة إسرائهم إليه. فأقَمْنا بياضَ يوم الأربعاء المذكور مُريحين بالقَرين. فلمّا حان العشيّ رُحْنا منه مُحْرِمين بعُمْرَة، فأسرَينا ليلتَنا تلك، فكان وصولنا مع الفجر إلى قَريب الحرم. فنزلنا مُرتقبين لانتشار الضوء.

ودخلنا مكة، حرسها اللّـه، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور، وهو الرابع من شهر أُغشت، على باب العُمْرة، وكان إسراؤنا تلك الليلة المذكورة، والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنّا قناعه، والأصوات تَصُكّ الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنَة تَضِجّ بالدعاء وتبتهل إلى اللّـه بالثناء، فتارة تشتدّ بالتلبية، وآونة تتضرّع بالأدعية. فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العُقْر[45]، فهي عروس ليالي العمر وبِكر بُنَيّات الدّهر. إلى أن وصلنا، في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حَرَمَ اللّـه العظيم ومُبَوّأ[46] الخليل إبراهيم. فألقينا الكعبة الحرام عروساً مجلوّة مزفوفة إلى جنّة الرّضوان محفوفة بوفود الرحمن، فطُفْنا طواف القُدوم، ثم صلّينا بالمقام الكريم، وتعلّقنا بأستار الكعبة عند الملْتَزَم، وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة. ودخلنا قبّة زمزم وشربنا من مائها، وهو لِمَا شُرِب له، كما قال، صلى اللّـه عليه وسلّم. ثمّ سعينا بين الصّفَا والمرْوة، ثم حَلَقْنا وأحْلَلْنا. فالحمد للّـه الذي كرّمنا بالوفادة عليه وجعلنا ممن انتهت الدعوة الإبراهيميّة[47] إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكان نزولنا فيها بدار تُعْرف بالنسبة إلى الحلال قريباً من الحرم، ومن باب السُّدّة أحد أبوابه في حجرةٍ كثيرة المرافق المَسْكَنيّة مُشْرِفة على الحرم وعلى الكعبة المقدّسة.

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق، كرمه اللّـه وشرفه

البيت المكرّم له أربعة أركان. وهو قريب من التّرْبِيع. وأخبرني زعيم الشّيْبيّين الذين

إليهم سِدانَة البيت، وهو محمد بن اسماعيل بن عبدالرحمن من ذرية عثمان بن طلحة بن شَيْبة بن طلحة بن عبد الدار صاحب رسول اللّـه، صلى اللّـه عليه وسلّم، وصاحب حِجابة البيت: أن ارتفاعه في الهواء من الصّفْح[٤٨] الذي يُقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني، تسع وعشرون ذراعاً، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى المِيزاب. فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه ليُمِرّ جميعَ بدنه به، والبيت المكرّم عن يساره، وأول ما يُلْقَى بعده الرّكن العراقي، وهو ناظر إلى جهة الشّمال. ثم الركن الشامي، وهو ناظر إلى جهة الغرب. ثم الركن اليماني، وهو ناظر إلى جهة الجنوب. ثم يعود إلى الركن الأسود، وهو ناظر إلى جهة الشرق. وعند ذلك يُتمّ شوطاً واحداً.

وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقيّ وركن الحجر الأسود، وهو قريب من الحَجَر بعشرة أشبار مُحَقّقة. وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يُسمّى المُلْتَزَم، وهو موضع استجابة الدّعاء. والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف. وهو من فضّة مُذْهبة، بديع الصنعة، رائق الصفة، يستوقف الأبصار حُسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها اللّـه بيته. وعُضادتاه كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضاً. وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته مقدار شبرين. وللباب نَقّارَتا فضّة كبيرتان يتعلّق عليهما قُفل الباب، وهو ناظر للشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً. وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار.

وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزّع، وحيطانه رخام كلّها مجزّع. قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج[٤٩] مُفرطة الطول، وبين كلّ عمود وعمود أربعُ خطاً. وهي على طول البيت متوسّطة فيه. فأحد الأعمدة، وهو أولها، يقابل نصف الصفح الذي يَحُفّ به الركنان اليمانيان. وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خُطاً. والعمود الثالث، وهو آخرها، يقابل الصفح الذي يحف به الركنان العراقي والشامي.

ودار البيت كلّه من نصفه الأعلى مطليّ بالفضّة المذْهبة المستحسنة، يخيّل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها. وهي تحفّ بالجوانب الأربعة وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى.

وسقف البيت مُجَلّل بكساء من الحرير الملون. وظاهر الكعبة كلها من الاربعة الجوانب مكسوّ بستور من الحرير الأخضر وَسَداها قُطْن

وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر، فيه مكتوب: "إنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاسِ الّذي بِبَكّة" الآية[٥٠]، واسم الإمام الناصر لدين اللّـه في سعته قدرُ ثلاث أذرع يطيف بها كلّها. قد شُكّل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي تبصرها أشكال مَحاريب رائقة ورسوم مقروءة مرسومة بذكر اللّـه تعالى وبالدعاء للناصر العبّاسيّ المذكور الآمر بإقامتها، وكل ذلك لا يخالف لونَها، وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً. وفي الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر، وفي الصفحين الصغيرين ستة عشر، وله خمسة مضاوئ[٥١]، وعليها زجاج عراقيّ بديع النقش، أحدها في وسط السقف، ومع كلّ ركن مَضْوَأ، والواحد منها لا يظهر لأنّه تحت القبور المذكور بعد. وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة وإحداها من ذهب.

وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علاهما في الركن بُوَيْبان من فضة كأنّهما طاقان مُلْقَان بزاوية الركن. وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة. وفي الركن الذي يليه وهو اليماني كذلك لكنّهما انقلعا وبقي العمود الذي كانا ملصقَيْن عليه. وفي الركن الشاميّ كذلك وهما باقيان. وفي جهة الركن العراقيّ كذلك. وعن يمينه الركن العراقيّ وفيه باب يُسمّى بباب الرحمة يُصْعَدُ منه إلى سطح المكرّم. وقد قام له قَبْو فهو متّصل بأعلى سطح البيت داخله الأدراج.

وفي أوله البيت المحتوي على المقام الكريم. فتَجِد للبيت الكريم بسبب هذا القبو خمسة أركان، وفي سعة صَفحَيْه قامتان، وهو محتوٍ على الركن العراقي بنصفين من كلّ صفح، وثلثا قناة هذا القبو مكسوّان بسُتُر الحرير الملون كأنّه قد لُفّ فيه ثم وُضع.

وهذا المقام الكريم الذي داخل هذا القبو هو مقام إبراهيم، صلى اللّـه على نبيّنا وعليه، وهو حَجَر مُغَشّى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعتُه مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله، فكأنّه، وله التنزيه والمثل الأعلى، كانون فَخّار كبير أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه، عاينّاه وتبرّكنا بلمسه وتقبيله، وصُبّ لنا في أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه، نفعنا اللّـه به. وأثرهما بيّن وأثر الأصابع المكرمة المباركة. فسبحان مَن ألانَه لواطئه حتى أثرت فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوَثير، سبحان جاعله من الآيات البيّنات.

ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هولٌ يُشْعِرُ النفوس من الذهول ويُطيشُ الأفئدةَ والعقول، فلا تُبْصِرُ إلاّ لحَظات خاشعة وعَبَرات هامِعَة ومدامع باكية وألسنة إلى اللّـه، عزّ وجلّ، ضارعة داعية.

عليه وسلّم، إلى الموضع الذي هو الآن مصلّى. وبقي الحوض المذكور مَصَبّاً لماء البيت إذا غُسِل، وهو موضع مُبارك، يقال: إنّه روضة من رياض الجنّة، والناس يزدحمون للصلاة فيه.

وبين الباب الكريم والركن العراقيّ حوضٌ طوله اثنا عشر شبراً، وعرضه خمسة أشبار ونصف، وارتفاعه نحو شبر، متصل من قُبالة عُضادة الباب التي تلي الركن المذكور آخذاً إلى جهته، وهو علامة موضع المقام مدةَ إبراهيم، عليه السلام، إلى أن صرفه النبيّ، صلى اللّـه

وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة.

وموضع المقام الكريم هو الذي يُصَلّى خلفه، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي، وهو إلى الباب أميل بكثير، وعليه قبّة خشب في مقدار القامة أو أزيد مُركّنة[٥٢] محدّدة بديعة النقش، سعتُها من ركنها الواحد إلى الثاني أربعة أشبار،

وقد نُصِبَت على الموضع الذي كان فيه المقام وحوله تكفيف[٥٣] من حجارة نُصِبت على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شبر، وطوله خمس خُطاً، وعرضه ثلاث خطاً. وأُدْخِل

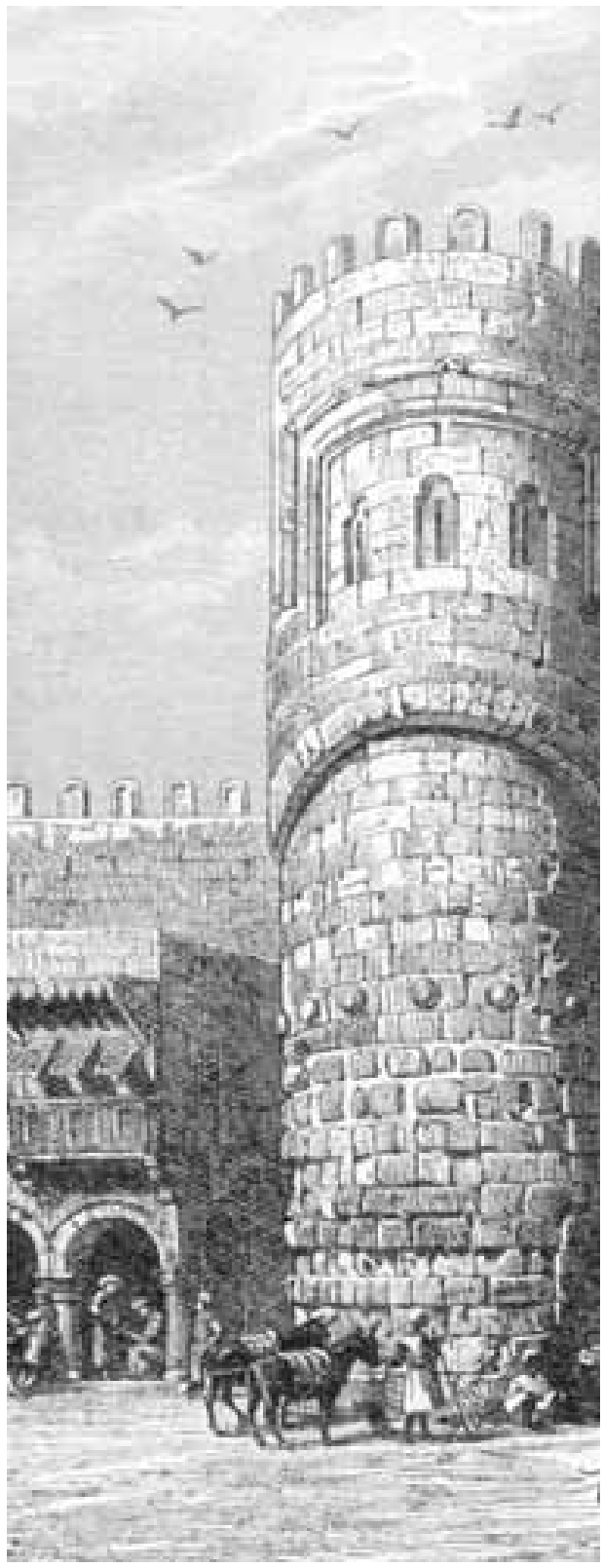

المقام إلى الموضع الذي وصفناه في البيت الكريم احتياطاً عليه، وبينه وبين صفح البيت الذي يقابله سبع عشرة خطوة، والخطوة كلّها فيها ثلاثة أشبار.

ولموضع المقام أيضاً قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم. فإذا كان في أشهر الحجّ وكثر الناس ووصل العراقيون والخراسانيون رُفِعَتْ قبة الخشب وَوُضِعت قبّة الحديد لتكون أحْملَ للازدحام.

ومن الركن الذي فيه الحجر الأسود إلى الركن العراقي أربعة وخمسون شبراً محقّقة. ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار، فالطويل يتطأمن[٥٤] إليه والقصير يتطاول إليه. ومن الركن العراقي إلى الركن الشاميّ ثمانية وأربعون شبراً محقّقة، وذلك داخل الحِجْر، وأمّا من خارج فمنه إليه أربعون خطوة، وهو مِئة وعشرون شبراً محقّقة، ومن خارجه يكون الطواف. ومن الركن الشاميّ إلى الركن اليماني ما من الركن الأسود إلى العراقي لأنه الصفح الذي يقابله. ومن اليماني إلى الأسود ما من العراقي إلى الشاميّ داخل الحجر لأنّه الصفح الذي يقابله.

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنّه الرّخام حسناً، منها سُود وسُمر وبيض قد أُلصِق بعضها إلى بعض، واتّسعت عن البيت بمقدار تسع خُطاً إلاّ في الجهة التي تقابل المقام، فإنّها امتدّت إليه حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة، وبين الركن العراقي وبين أول جدار الحِجْر مدخل إلى الحِجْر سعته أربع خطاً، وهي ستّ أذرع محقّقة كِلْناها باليد. وهذا الموضع الذي لم يُحَجّر[٥٥] عليه هو الذي تركَتْ قُرَيْش من البيت، وهو ست أذرع، حسبما وردت به الآثار الصحاح، ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر على مثال تلك السعة. وبين جدار البيت الذي تحت الميزاب والذي يقابله من جدار الحِجْر على خطّ استواء يشقّ وسطَ الصحن المذكور أربعون شبراً، وسعته من المدخل إلى المدخل ست عشرة خطوة، وهي ثمانية وأربعون شبراً، ودَوْر الجِدار رخام كلّه مُجَزّعٌ بديع الإلصاق... وهناك قضبان صفر مذْهَبَة وُضِعَ منها في صفحة أشكال شِطْرَنجيّة متداخلة بعضها على بعض وصفات محاريب، فإذا ضربت الشمس فيها لاح لها بصيص وَلألاء يخيّل للناظر إليها أنّها ذهب يرتمي بالأبصار شُعاعه.

وفي ارتفاع جِدار هذا الحِجْر الرّخاميّ خمسة أشبار ونصف، وسعتُه أربعة أشبار ونصف. وداخل الحجر بلاط واسع ينعطف عليه الحِجْر كأنّه ثلثا دائرة، وهو مفروش بالرّخام المجَزّع المقطّع في دوْر الكف إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك، ثم أُلْصِقَ بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الإتقان رائق الترصيع والتجزيع رائع التركيب والرّصف، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشّطْرَنجيّة وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقيّد بصره حسناً، فكأنّه يجيله في أزهار مفروشة مختلفات الألوان إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطافَ القِسِيّ وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الحِجْر المقابل للميزاب أحدث الصانعُ فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب[٥٦] ما لا يحدثه الصِّنعُ اليدين[٥٧] في الكاغِد[٥٨] قطعاً بالجَلَمَين[٥٩]، فمرْآهما عجيب، أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء باللّـه أبي محمد الحسن بن المستنجد باللّـه أبي المظفر يوسف العبّاسيّ، رضي اللّـه عنه.

ويقابل الميزابَ في وسط الحِجْر وفي نصف جداره الرّخاميّ رخامة قد نُقِشَت أبدع نقش، وحَفّت بها طرة منقوشة نقشاً مُكحّلاً عجيباً، فيه مكتوب: مما أمر بعمله عبداللّـه وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين اللّـه أمير المؤمنين، وذلك في سنة ست وسبعين وخمس مِئة. والميزاب في أعلى الصفح الذي يلي الحِجْر المذكور، وهو من صُفْر[٦٠] مذْهب، قد خرج إلى الحِجْر بمقدار أربع أذرع، وسعتُه مقدار شبر. وهذا الموضع تحت الميزاب هو أيضاً مَظَنّة استجابة[٦١] الدعوة بفضل اللّـه تعالى. وكذلك الركن اليماني ويُسمّى المُستجار ما يليه، وهذا الصفح المتّصل به من جهة الركن الشاميّ.

وتحت الميزاب في صحن الحِجْر بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل، صلى اللّـه عليه وسلّم، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلاً شكل محراب تتّصل بها رخامة خضراء مستديرة. وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نُكَت[٦٢] تنفتح عن لونها إلى الصفرة قليلاً كأنّها تجزيع، وهي أشبه الأشياء بالنّكَت التي تبقى في البيدق[٦٣] من حلّ الذهب فيه. وإلى جانبه مما يلي الركن العراقيّ قبر أمّه هاجر، رضي اللّـه عنها، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف. يتبرّك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحِجْر. وحُقّ لهم ذلك لأنهما من البيت العتيق وقد انطبَقا على جَسَدين مقدّسين مكرّمين، نوّرَهما اللّـه ونفع ببركتهما كلّ من صلّى عليهما. وبين القبرين المقدّسين سبعة أشبار.

وقبّة بئر زمزم تقابل الركن، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة. والمقام المذكور الذي يُصَلّى خلفه عن يمين القُبّة، ومن ركنها إليه عشر خُطاً. وداخلها مفروش بالرّخام الأبيض الناصع البياض. وتَنّورْ[٦٤] البئر المباركة في وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يقابل البيتَ المكرّم، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذَرَعْناه. وعمق الماء سبع قامات على ما يُذْكَر. وباب القبة ناظر إلى الشرق، وبابا قبّة العبّاس وقبة اليهودية ناظران إلى الشمال.

والرّكن من الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة المنسوبة إلى اليهودية يتّصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر إلى الشرق من القبة العباسية. فبينهما هذا القَدّ[٦٥] من الانحراف. وتلي قبّة بئر زمزم من ورائها قبّة الشّراب، وهي المنسوبة لليهودية. وهاتان القبّتان مَخْزَنان لأوْقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأتوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخلُ من نسبتها الشّرابيّة لأنّها كانت سقاية الحاجّ وهي حتى الآن يُبَرّد فيها ماء زمزم.

ويُخْرَج مع الليل لسقي الحاجّ في قِلال يسمّونها الدّوارق، كل دَوْرَق منها ذو مقبض واحد. وتَنّور بئر زمزَم من رخام قد أُلْصِقَ بعضه ببعض إلصاقاً لا تحيله الأيام وأُفْرِغ في اثنائه الرّصاص. وكذلك داخل التّنّور. وحَفّت به أعمدة الرّصاص المُلْصَقَة إليه إبلاغاً في قوّة لَزّه ورَصّه: اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافّة البئر دائرة بالتنّور كلّه. ودَوْرُه أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغِلَظه شبر ونصف. وقد استدارت بداخل القبّة سقاية سَعتُها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تُملأ ماءً للوضوء، وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضّأون عليها.

والحجر الأسود المُبارك مُلْصَقٌ في الرّكن الناظر إلى جهة المشرق، ولا يُدْرَى قدرُ ما دخل في الركن، وقيل: إنّه داخل في الجدار بمقدار ذراعين. وسعتهُ ثلثا شبر، وطوله شبر وعُقَد، وفيه أربَعُ قِطَع ملصَقَة.

ذكر ما خص اللّـه تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليليّة الإبراهيميّة، وذلك أن اللّـه عزّ وجلّ يقول حاكياً عن خليله، صلى اللّـه عليه وسلّم: "فاجْعَلْ أفئدةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إلَيْهِمْ،

وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرات، لَعَلَّهُم يَشْكُرُون[٦٦]"، وقال عزّ وجلّ: "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كلّ شيء[٦٧]". فبرهان ذلك فيها ظاهر متّصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تَهْوِي إِلَيْها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة. فالطريق إليها مُلْتقى الصادر والوارد ممّن بلغته الدعوة المباركة. والثمرات تُجْبى إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نِعَماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولو لم يكن لها من المتاجر إلاّ أوانَ الموسم ففيه مُجتمَع أهل المشرق والمغرب، فيُباع فيها في يوم واحد، فضلاً عمّا يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك، والكافور، والعنبر والعود؛ والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند[٦٨] والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخُرَاسانيّة، والبضائع المَغْرِبيّة، إلى ما لا ينحصر ولا ينْضَبِط، ما لو فُرّق على البلاد كلّها لأقام لها الأسواق النافقة ولَعَمّ جميعها بالمنفعة التجاريّة، كلّ ذلك في ثمانية أيّام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها. فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلاّ وهي موجودة فيها مدّةَ الموسم. فهذه بركة لا خَفَاء بها وآية من آياتها التي خَصّها اللّـه بها.

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيّبات فكنّا نظنّ أنّ الأندلس اختصّت من ذلك بحظّ له المزيّة على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تَغَصّ بالنّعم والفواكه: كالتّين، والعنب، والرّمّان، والسّفرْجل، والخوخ، والأتْرُجّ، والجوز، والمُقْل، والبِطّيخ، والقِثّاء، والخيار، إلى جميع البقول كلّها: كالباذِنجان، واليَقْطين، والسّلْجَم[٦٩]، والجَزَر، والكُرُنب، إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العَبِقة والمشمومات العَطِرَة. وأكثر هذه البقول كالباذِنجان والقِثّاء والبطّيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره. ولكلّ نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسّة الذوق يفضل بها نوعَها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

مسجد مولد النبي

وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه دخلنا مولد النبي، صلى اللّـه عليه وسلّم. وهو مسجد حفيلُ البنيان، وكان داراً لعبداللّـه بن عبدالمطلب، أبي النبي، صلى اللّـه عليه وسلّم، وقد تقدّم ذكره. ومولده، صلى اللّـه عليه وسلّم، صِفَة صهريج[٧٠] صغير سعتُه ثلاثة أشبار وفي وسطه رخامة خضراء سعتُها ثلثا شبر مطوّقة بالفضّة فتكون سعتها مع الفضّة المتصلة بها شبراً. ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدّس الذي هو مسقطٌ لأكرم مولود على الأرض ومَمَسّ لأطهر سُلالة وأشرفها، صلى اللّـه عليه وسلّم، ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم. وبإزائه محراب حفيل القرنصة، مرسومة طرته بالذهب. وقد تقدّم الوقف لهذا كلّه.

وهذا الموضع المبارك هو شرقيّ الكعبة متّصل بصفح الجبل. ويُشرف عليه بمقربة منه جبل أبي قيس، وعلى مقربة منه أيضاً مسجد، عليه مكتوب: "هذا المسجد هو مولد عليّ بن أبي طالب، رضوان اللّـه عليه؛ وفيه تربّى رسول اللّـه، صلى اللّـه عليه وسلّم، وكان داراً لأبي طالب عمّ النبي، صلى اللّـه عليه وسلّم، وكافله".

دار خديجة الكبرى

ودخلتُ أيضاً في اليوم المذكور دار خديجة الكبرى، رضوان اللّـه عليها، وفيها قبة الوحي، وفيها أيضاً مولد فاطمة، رضي اللّـه عنها. وهو بيت صغير مائل للطول. والمولد شبه صهريج صغير وفي وسطه حجر أسود. وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها، رضي اللّـه عنهما، ومسقط سِلْو[٧١] الحسن لاصق بمسقط سلو الحسين وعليهما حجران مائلان إلى السواد كأنّهما علامتان للمولدين المباركين الكريمين. ومسحنا الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمسّ بشرات المواليد الكرام، رضوان اللّـه عليهم.

وفي الدار المكرمة أيضاً مختبأ النبي، صلى اللّـه عليه وسلّم، شبيه القبة، وفيه مقعد في الأرض عميق شبيه الحفرة داخل في الجدار قليلاً وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنّه يُظِلّ المقعد المذكور، قيل: إنه كان الحجر الذي كان غطّى النبي، صلى اللّـه عليه وسلّم، عند اختبائه في الموضع المذكور، صلوات اللّـه عليه وعلى أهل بيته الطاهرين. وعلى كلّ واحد من هذه الموالد المذكورة قبةُ خشب صغيرة تصون الموضع غير ثابتة فيه. فإذا جاء المُبْصر لها نحّاها ولمس الموضع الكريم وتبرّك به ثمّ أعادها عليه.

من المدينة إلى العراق

وفي ضحوة يوم السبت الثامن لمحرّم المذكور، والحادي والعشرين من شهر أبريل، كان رحيلنا من المدينة المكرمة إلى العراق، قرّب اللّـه لنا المرام وسهّل علينا السبيل. واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام، فنزلنا يوم الاثنين، ثالث يوم رحيلنا المذكور، بوادي العروس، فتزوّد الناس منها الماء، يحفرون عليه في الأرض بئراً فينبع منها ماء عذب مَعين يُرْوي الأمّة التي لا يُحْصى لها عدد من هذه المحلة مع جِمَالها التي تنيّف على عددها، وللّـه القدرة سبحانه.

وصعدنا من وادي العروس إلى أرض نجد، وخلّفنا تهامة وراءنا، ومشينا في بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولا يبلغ مداها، وتنسّمنا نسيم نجد وهواءها المضروب به المثل، فانتعشت النفوس والأجسام ببرد نسيمه وصحّة هوائه. ونزلنا يوم الثلاثاء، رابع يوم رحيلنا، على ماء يعرف بماء العُسَيلة. ثم نزلنا يوم الأربعاء، خامس يوم رحيلنا، بموضع يعرف بالنَّقِرة، وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام، وجدنا أحدها مملوءاً بماء المطر، فعمّ جميع المحلّة ولم ينضب على كثرة المحلّة واستماحتها.

وصفةُ مراحل هذا الأمير بالحاج أن يسري من نصف الليل إلى ضُحَيّة، ثم ينزل إلى أول الظهر، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة، ثم يقوم نصف الليل؛ هذا دأبه.

ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرّم، وسادس يوم رحيلنا، على ماء يُعرف بالقارورة، وهي مصانع[٧٢] مملوءة بماء المطر، وهذا الموضع هو وسط أرض نجد. وما أرى أن في المعمور أرضاً أفسح بسيطاً، ولا أوسع أنفاً، ولا أطيب نسيماً، ولا أصحّ هواء، ولا أمدّ استواء، ولا أصفى جوّاً، ولا أنقى تربة، ولا أنعش للنفوس والأبدان، ولا أحسن اعتدالاً، في كل الأزمان، من أرض نجد. ووصف محاسنها يطول والقول فيها يتّسع.

وفي يوم الخميس المذكور، مع ضحوة النهار، نزلنا بالحاجر، والماء فيه في مصانع، وربّما حفروا عليه حُفَراً قريبة العمق يسمونها أحفاراً، واحدها حَفَر. وكنّا نتخوّف في هذاالطريق قلّةَ الماء، لاسيما مع عِظَم هذا الجمع الأناميّ والأَنْعاميّ، الذين لو وردوا البحر لأنزفوه واستقوه، فأنزل اللّـه من سُحُب رحمته ما أعاد الغِيطان غُدْراناً، وأجرى المُسُول[٧٣] سيولاً، وصَيّر الوِهاد مملوءة عِهاداً[٧٤]. فكنّا نبصر مَذانب[٧٥] الماء سائحة على وجه الأرض فضلاً من اللّـه ونعمة، ولطفاً من اللّـه بعباده ورحمة، والحمد للّـه على ذلك. وفي اليوم المذكور أجزنا بالحاجر واديين سيّالين، وأما البِرَك والقرارات فلا تُحْصَى.

وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضَحْوَةَ النهار سَمِيرة، وهي موضع معمور، وفي بسيطها شبه حصن يطيف به حَلَق كبير مسكون، والماء فيه في آبار كثيرة إلاّ أنّها زُعَاقٌ ومستنقعات وبِرَك، وتَبَايَع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن، ووقع الناس على قَرَم وعَيْمة[٧٦]، فبادروا الابْتياع لذلك بشِقَق الخام التي يستصحبونها لمشاراة الأعراب لأنّهم لا يبايعونهم إلا بها.

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق، وهو جبل في بيداء من الأرض، وفي صفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح. ثمّ رحنا من ذلك الموضع وبتنا بوادي الكروش على غير ماء، ثمّ أسرينا منه وأصبحنا على فَيْد يوم الأحد، وهي حصن كبير مبرّج مشرّف في بسيط من الأرض يمتدّ حوله رَبَض يُطيف به سور عتيق البنيان، وهو معمور بسكان من الأعراب، ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق، وهناك يترك الحاجّ بعض زادهم إعداداً للإرمال من الزاد[٧٧] عند انصرافهم، ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم. وهذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة، شرّفها اللّـه، أو أقلّ يسيراً، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوماً في طريق سهلة طيّبة، والمياه فيها بحمد اللّـه موجودة في مصانع كثيرة. ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأُهْبة إرهاباً للمجتمعين به من الأعراب لئلاّ يداخلهم الطمع في الحاجّ، فهم يلْحظونَهم مُستشرفين إلى مكانهم لكنّهم لا يجدون إليهم سبيلاً، والحمد للّـه. والماء بهذا الموضع كثير في آبار تمدّها عيون تحت الأرض، ووجد الحاج فيها مصنعاً قد اجتمع فيه الماء من المطر، فانتُزف للحين، وامتلأت أيدي الحاجّ القَرِمين من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة، فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظِلالة إلاّ وإلى جانبها كبش أو كبشان، بحسب القدرة والوَجْد[٧٨]. فعمّ جميع المحلّة غنمُ العرب. وكان ذلك اليوم عيداً من الأعياد، وكذلك عمّتْهم أيضاً جِمالُهم لمن أراد الابتياع منهم من الجمالين وسواهم للاستظهار على الطريق. وأما السمن والعسل واللبن فلم يبق إلاّ من تحمّل أو

استعمل منها بقدر حاجته.

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها إلى ظهر يوم الاثنين بعده، ثمّ أسروا نصف الليل ترتيبَ سيرهم المذكور قبلُ، ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم، وهو أول يوم من مايه[٧٩]، بموضع يعرف بالأَجْفَر، وهو مشتهر عندهم بموضع جَميلٍ وبُثَيْنَة العُذْريّين، ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة، ثم أسرينا منها ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزَرُود، وهي وَهْدة في بسيط من الأرض فيها رمال مُنهالة، وبها حَلَق كبير داخل دُوَيْرَات صغار هو شبيه الحصن، يعرف بهذه الجهات بالقصر. والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة، فنزلنا ضحوة يوم الخميس الموفي عشرين لمحرم، والثالث لمايه، بموضع يعرف بالثعلبيّة ولها مبنًى شبه الحصن خَرِب لم يبقَ منه إلاّ الحَلَق، وبإزائه مصنع كبير الدّوْر من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلاها، والمهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات، وكان فيه من ماء المطر ما عمّ جميع المحلة. ووصل إلى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالاً ونساء واتخذوا به سوقاً عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الإبل، فكان يوم سوق نافقة.

وبقي من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل التي تعمّ جميع المحلّة ثلاثة: أحدها زُبالة، والثاني واقِصَة، والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة. وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنّها لا تعمّ، وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعمّ الناس والإبل وهي التي تَرِدها رِفْهاً. وفي هذا المنهل الذي للثعلبيّة شاهدنا من غَلَبَة الناس على الماء أمراً هائلاً لا يكادُ يُشاهَد

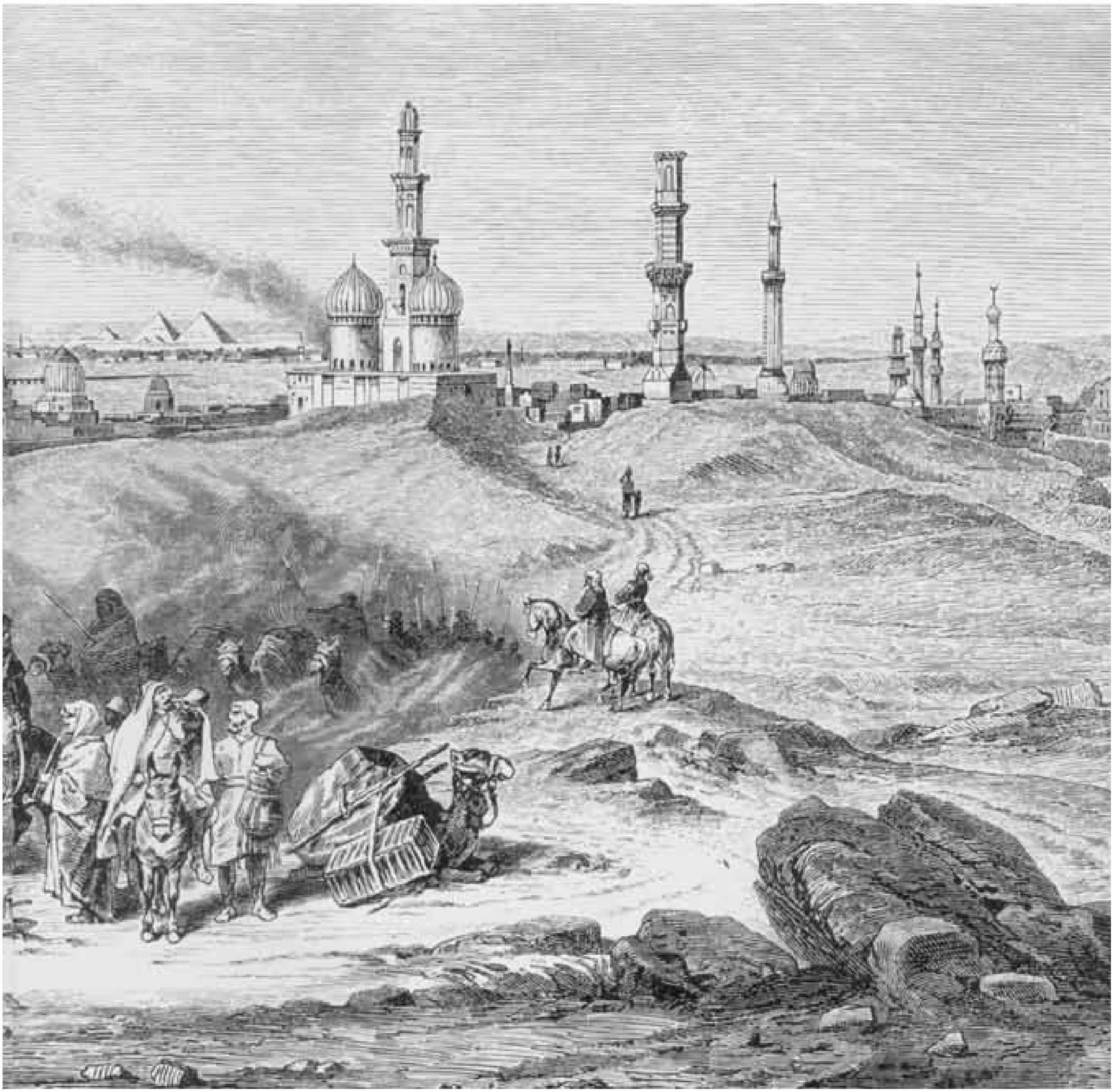

مثله في تغلّب المدن والحصون بالقتال. وحسبُك أن مات في ذلك الموضع ضَغْطاً بشدّة الزحام وغَطّاً تحت الماء بالأقدام سبعةُ رجال بادروا لمورد الماء فحصلوا على مورد الفناء، رحمهم اللّـه، وغفر لهم.

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببِركة المَرْجوم، وهي مصنع، وقد بُني له فيما يعلوه من الأرض مَصَبّ يؤدي الماء إليه على بُعْد وأُحْكم ذلك إحكاماً يدلّ على قدرة الاتّساع وقوة الاستطاع[٨٠].

ذكر مدينة الكوفة، حرسها اللّـه تعالى

هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر منها أكثر من العامر. ومن أسباب خرابها قبيلة خَفَاجَة المجاورة لها، فهي لا تزال تَضُرّ بها، وكفاك بتعاقُب الأيام والليالي مُحْيِياً ومُفْنياً. وبناء هذه المدينة بالآجُرّ خاصّة، ولا سور لها. والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد، ولا عمارة تتّصل به من جهة الشرق. وهو جامع كبير، في الجانب القبلي منه خمسة أبْلِطَة، وفي سائر الجوانب بلاطان. وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة من صُمّ الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرّصاص، ولا قسيّ عليها، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول اللّـه، صلى اللّـه عليه وسلّم، وهي في نهاية الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوُت ارتفاعها. فما أرى في الأرض مسجداً أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفاً.

وبهذا الجامع المكرّم آثار كريمة: فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: إنّه كان مصلّى ابراهيم الخليل، صلّى اللّـه عليه وسلّم، وعليه ستر أسود صوناً له، ومنه خرج الخطيب لابساً ثيابَ السواد للخطبة. فالنّاس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه. وعلى مقربة منه، مما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنّه مسجد صغير، وهو محراب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي اللّـه عنه، وفي ذلك الموضع ضربه الشقيّ اللعين عبدالرحمن بن مُلجَم بالسيف، فالناس يصلّون فيه باكين داعين. وفي الزاوية من آخر هذا البلاط القبليّ، المتّصل بآخر البلاط الغربيّ، شبيه مسجد صغير محلّق عليه أيضاً بأعواد الساج، هو موضع مَغَار التنّور الذي كان آيةً لنوح، عليه السلام، وفي ظهره، خارج المسجد، بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال إنّه كان متعبَّد إدريس، صلّى اللّـه عليه وسلّم، ويتّصل بهما فضاء متّصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال إنّه مُنْشَأ السفينة. ومع آخر هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب، رضي اللّـه عنه، والبيت الذي غُسِل فيه. ويتّصل به بيت يُقال إنّه كان بيت ابنة نوح، صلّى اللّـه عليه وسلّم.

وهذه الآثار الكريمة تلقّيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، واللّـه أعلم بصحّة ذلك كلّه.

وفي الجهة الشرقيّة من الجامع بيت صغير يُصْعَد إليه فيه قبر مُسْلم بن عَقيل بن أبي طالب، رضي اللّـه عنه. وفي جوفيّ الجامع على بعد منه يسير سِقياة كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أحواض كبار.

وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن المنسوب لعليّ ابن أبي طالب، رضي اللّـه عنه، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجّى ميْتاً على ما يُذْكَر. ويقال: إن قبره فيه، واللّـه أعلم بصحّة ذلك. وفي هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا، لأنّا لم نشاهده بسبب أنّ وقت المُقام بالكوفة ضاق عن ذلك، لأنّا لم نبِت فيها سوى ليلة يوم السبت. وفي غدائه رحلنا ونزلنا قريبَ الظهر على نهر منسرب من الفرات. والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقيّ. والجانب الشرقي كلّه حدائق نخيل ملتفّة يتّصل سوادها ويمتدّ امتداد البصر. ورحلنا من ذلك الموضع وبتنا ليلة الأحد منسلَخ محرّم بمقربة من الحلّة ثمّ جئناها يوم الأحد المذكور.

ذكر مدينة الحلة، حرسها اللّـه تعالى

هي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبقَ من سورها إلا حَلَقٌ من جدار تُرابيّ مستدير بها. وهي على شط الفرات، يتّصل بها من جانبها الشرقيّ ويمتدّ بطولها. ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية. وهي قوية العمارة، كثيرة الخلق، متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً، فديارها بين حدائق النخيل، وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متّصلة من الشطّ إلى الشطّ تحفّ بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عِظَماً وضخامة ترتبط إلى خُشُب مُثبتَة في كلا الشطّين، تدلّ على عظم الاستطاع والقدرة؛ أمَرَ الخليفة بعقده على الفرات اهتماماً بالحاجّ واعتناء بسبيله، وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب، فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيبهم، ولم يكن عند شخوصهم إلى مكة شرّفها اللّـه.

وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد، وهذا النهر كاسمه فُرات، هو من أعذب المياه وأخفّها، وهو نهر كبير زَخّار، تصعد فيه السفن وتنحدر.

والطريق من الحِلّة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها، في بسائط من الأرض وعمائر، تتّصل بها القرى يميناً وشمالاً. ويشقّ هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرّب بها وتسقيها، فَمَحْرَثُها لا حدّ لاتّساعه وانفساحه، فللعين في هذه الطريق مسرح انشراح، وللنفس مِراح انبساط وانفساح، والأمن فيها متّصل، بحمد اللّـه سبحانه وتعالى.

وفي سحر يوم الأربعاء المذكور رحلنا من القرية المذكورة واجتزنا على مدائن كسرى حسبما ذكرناه وانتهينا إلى صَرْصَر وهي أخت زَريران المذكورة حسناً أو قريب منها. ويمرّ بجانبها القبليّ نهر كبير متفرّع من الفرات عليه جسر معقود على مراكب تحفّ بها من الشطّ إلى الشطّ سلاسل حديد عظام، على الصفة التي ذكرناها في جسر الحلّة، فعبرناه وأجزنا القرية ونزلنا قائلين، وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ.

وبهذه القرية سوق حفيلة ومسجد جامع كبير جديد. وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسناً. وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتُهما عن وصفهما، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة، ومنها انصبابهما إلى البحر، ومجراهما من الشمال إلى الجنوب، وحسبُهما ما خصّهما اللّـه به من البركة هما وأخاهما النيل، مما هو مذكور مشهور. ورحلنا من ذلك الموضع قُبَيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور وجئنا بغداد قُبيل العصر، والمدخل إليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها.

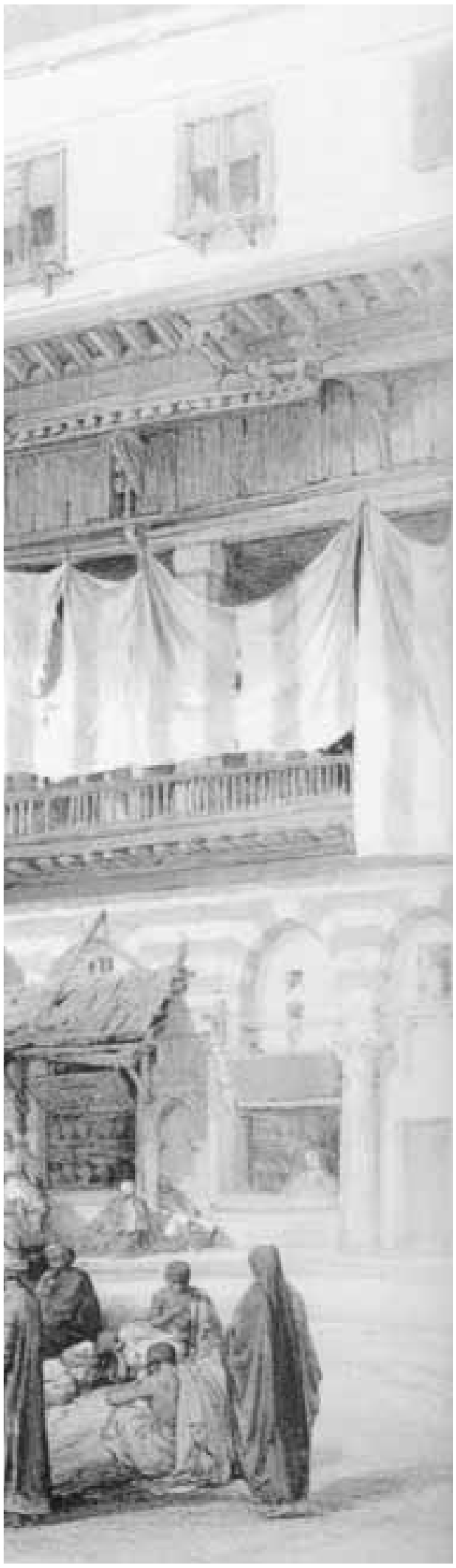

ذكر مدينة السلام بغداد، حرسها اللّـه تعالى

هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسيّة، ومَثابة الدّعوة الإماميّة القرشية الهاشميّة، قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلاّ شهير اسمها. وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها[٨١] والتفات أعْيُن النوائب إليها كالطّلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلَةَ[٨٢] والنظر إلاّ دجلتها التي هي بين شرقيّها وغربيّها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لَبّتَين[٨٣]، فهي تَردِهما ولا تَظْمأ، وتتطلّع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ، والحسنُ الحَريميّ[٨٤] بين هوائها ومائها ينشأ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة، ففِتن الهوى، إلا أن يعصم اللّـه منها، مخوفة.

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلاّ من يتصنّع بالتواضُع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويُظْهرون لمَن دونهم الأنفة والإباء، ويستغصرون عمَّن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصوّر كلّ منهم في معتقَده وخَلَده أن الوجود كلّه يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثْوًى غير مَثْواهم، كأنّهم لا يعتقدون أن للّـه بلاداً أو عباداً سواهم، يسحبون أذيالهم أشَراً وبَطَراً، ويا يُغيّرون في ذات اللّـه مُنكَراً، يظنُّون أن أسنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أنّ فَضْلَه، بمقتضى الحديث المأثور، في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً، وما منهم من يحسن للّـه فَرْضاً، فلا نفقة فيها إلا من دينار تَقْرِضه، وعلى يدي مُخْسِر للمِيزان تَعْرِضه، لا تكاد تظفر من خواصّ أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلاّ على من ثبت له الوَيْلُ في سورة التطفيف، لا يُبالون في ذلك بعيب، كأنّهم من بقايا مَدْيَن قوم النبي شُعَيْب. فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق، أو يَهَشّ له هَشاشة انتفاع واسترفاق، كأنّهم من التزام هذه الخَلّة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق، فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها، ويُعلّل[٨٥] حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها، أستغفر اللّـه إلا فقهاءهم المُحدّثين،

ووعّاظهم المذكّرين، لا جَرَمَ أنّ لهم في طريقة الوعظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الإنذار المخوّف والتحذير، مقاماتٍ تستنزل لهم من رحمة اللّـه تعالى ما يحطّ كثيراً من أوزارهم، ويسحب ذيلَ العفو على سوء آثارهم، ويمنع القارِعة[٨٦] الصمّاء أن تحلّ بديارهم، لكنّهم معهم يضربون في حديد بارد، ويرومون تفجير الجَلامد، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جُمُعاتهم من واعظ يتكلّم فيه، فالموفّق فيهم لا يزال في مجلس ذكرٍ أيّامَه كلّها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة.

ثم نرجع إلى ذكر بغداد:

هي كما ذكرناه جانبان: شرقيّ وغربيّ، ودجلة بينهما، فأمّا الجانب الغربي فقد عمّه الخراب واستولى عليه، وكان المعمورَ أولاً. وعمارة الجانب الشرقيّ مُحْدَثة لكنّه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة، كلّ محلة منها مدينة مستقلّة، وفي كلّ واحدة منها الحَمّامان والثلاثة والثمانية منها بجوامع يُصلّى فيها الجمعة، فأكبرها القُرَيّة، وهي التي نزلنا فيها بربَض منها يعرف بالمربّعة على شطّ دجلة بمقربة من الجسر، فحملتْه دجلة بمدّها السيلي، فعاد الناس يعبرون بالزوارق، والزوارق فيها لا تُحْصى كثرة، فالناس ليلاً ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء. والعادة أن يكون لها جسران: أحدهما مما يقرب من دُور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس. والعبور في الزوارق لا ينقطع منها.

ثمّ الكَرْخ، وهي مدينة مُسَوّرة.

ثمّ محلّة باب البصرة، وهي أيضاً مدينة، وبها جامع المنصور، رحمه اللّـه، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله.

ثمّ الشارع، وهي أيضاً مدينة، فهذه الأربع أكبر المحلاّت.

وبين الشارع ومحلّة باب البصرة سوق المارسْتان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد، وهو على دجلة، وتتفقّده الأطبّاء كلّ يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية. وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكيّة، والماء يدخل إليه من دجلة.

وأسماء سائر المحلاّت يطول ذكرها، كالوَسيطة، وهي بين دجلة ونهر يتفرّع من الفرات وينصبّ في دجلة، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات.

ويشقّ على باب البصرة الذي ذكرنا محلّته نهر آخر منه وينصبّ أيضاً في دجلة.

ومن أسماء المحلات العتّابية، وبها تُصنع الثياب العتّابية، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان.

ومنها الحَرْبيّة، وهي أعلاها، وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد إلى أسماء يطول ذكرها.

وبإحدى هذه المحلاّت قبر مَعْروف الكَرْخيّ، وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر في الأولياء. وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متّسع السّنام، عليه مكتوب: هذا قبر عَوْن ومَعين، من أولاد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي اللّـه عنه، وفي الجانب الغربي أيضاً قبر موسى بن جعفر، رضي اللّـه عنهما، إلى مشاهد كثيرة ممّن لم تحضرنا تسميتُه من الأولياء والصالحين والسلف الكريم، رضي اللّـه عن جميعهم.

وبأعلى الشرقيّة خارج البلد محلّة كبيرة بإزاء محلّة الرّصافة، وبالرصافة كان باب الطّاق المشهور على الشطّ، وفي تلك المحلّة مشهد حفيل البنيان، له قبّة بيضاء سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة، رضي اللّـه عنه، وبه تعرف المحلّة. وبالقرب من تلك المحلّة قبر الإمام أحمد بن حَنْبل، رضي اللّـه عنه. وفي تلك الجهة أيضاً قبر أبي بكر الشّبْلي، رحمه اللّـه، وقبر الحسين بن منصور الحَلاّج. وببغداد من قبور الصّالحين كثير، رضي اللّـه عنهم. وبالغربيّة هي البساتين والحدائق، ومنها تُجْلَب الفواكه إلى الشرقيّة.

دار الخلافة

وأما الشرقيّة فهي اليوم دار الخلافة، وكفاها بذلك شرَفاً واحتفالاً! ودُور الخليفة مع آخرها، وهي تقع منها في نحو الرّبْع أو أزيد، لأنّ جميع العباسيّين في تلك الديار معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتّبات القائمة بهم. وللخليفة من تلك الديار جزء كبير، قد اتخذ فيها المناظر المُشْرِفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة. وليس له اليوم وزير إنّما له خَديم يعرف بنائب الوزارة، يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكُتب فينفذ الأمور؛ وله قَيّم على جميع الديار العباسيّة، وأمين على سائر الحُرَم الباقيات من عهد جدّه وأبيه وعلى جميع من تضمّه الحُرْمة الخلافيّة، يعرف بالصاحب مجد الدين أُستاذ الدار، هذا لقبه، ويُدْعى له إثرَ الدعاء للخليفة، وهو قلّما يظهر للعامّة اشتغالاً بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفّل بمغَالقها وتفقّدها ليلاً ونهاراً.

ورونق هذا الملْك إنّما هو على الفتيان والأحابش المَجَابيب[٨٧]، منهم فتّى اسمه خالص، وهو قائد العسكرية كلّها، أبصرناه خارجاً أحدَ الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والدّيْلم وسواهم، وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدي رجال قد احتفّوا به. فشاهدنا من أمره عجباً في الدهر، وله القصور والمناظر على دجلة.

وقد يظهر الخليفة في بعض الأحيان بدجلة راكباً في زورق. وقد يصيد في بعض الأوقات في البرّية، وظهوره على حالة اختصار تعميةً لأمره على العامّة، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهاراً. وهو مع ذلك يحبّ الظهور للعامّة، ويؤثر التحبّب لهم، وهو ميمون النقيبة عندهم قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلاً وطيبَ عيش فالكبير والصغير منهم داعٍ له.

أبصرنا هذا الخليفة المذكور، وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين اللّـه بن المستضيء بنور اللّـه أبي محمد الحسن بن المستنجد باللّـه أبي المظفر يوسف، ويتّصل نسبه إلى أبي الفضل جعفر المقتدر باللّـه، إلى السلف فوقه من أجداده الخلفاء، رضوان اللّـه عليهم، بالجانب الغربي أمام منظرته به وقد انحدر عنها صاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقيّ على الشطّ، وهو في فَتَاء من سِنّه، أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهُه[٨٨]، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرّوَاء، سِنّه نحو الخمس وعشرين سنة، لابساً ثوباً أبيض شبه القَبَاء برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوّقة بوَبَر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتّخذة للّباس مما هو كالفَنَك[٨٩] وأشرف، متعمّداً بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه، لكن الشمس لا تخفى وإن سُترت، وذلك عشيّة يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين، وأبصرناه أيضاً عشيّ يوم الأحد بعده متطلّعاً من منظرته المذكورة بالشطّ الغربي، وكُنّا نسكن بمقربة منها.

والشرقيّة حفيلة الأسواق عظيمة الترتيب، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم إلا اللّـه تعالى الذي أحصى كلّ شيء عدداً. وبها من الجوامع ثلاثة، كلّ يجمّع فيها: جامع الخليفة متّصل بداره، وهو جامع كبير، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء والطهور؛ وجامع السلطان، وهو خارج البلد، ويتّصل به قصور تُنْسَب للسلطان أيضاً المعروف بشاهِ شاه، وكان مدبّر أمر أجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هنالك، فابتنى الجامع أمام مسكنه؛ وجامع الرّصافة، وهو على الجانب الشرقيّ المذكور، وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافةٌ نحو الميل، والرصافة تربة الخلفاء العباسيين، رحمهم اللّـه. فجميع جوامع البلد ببغداد المجمّع فيها أحد عشر.

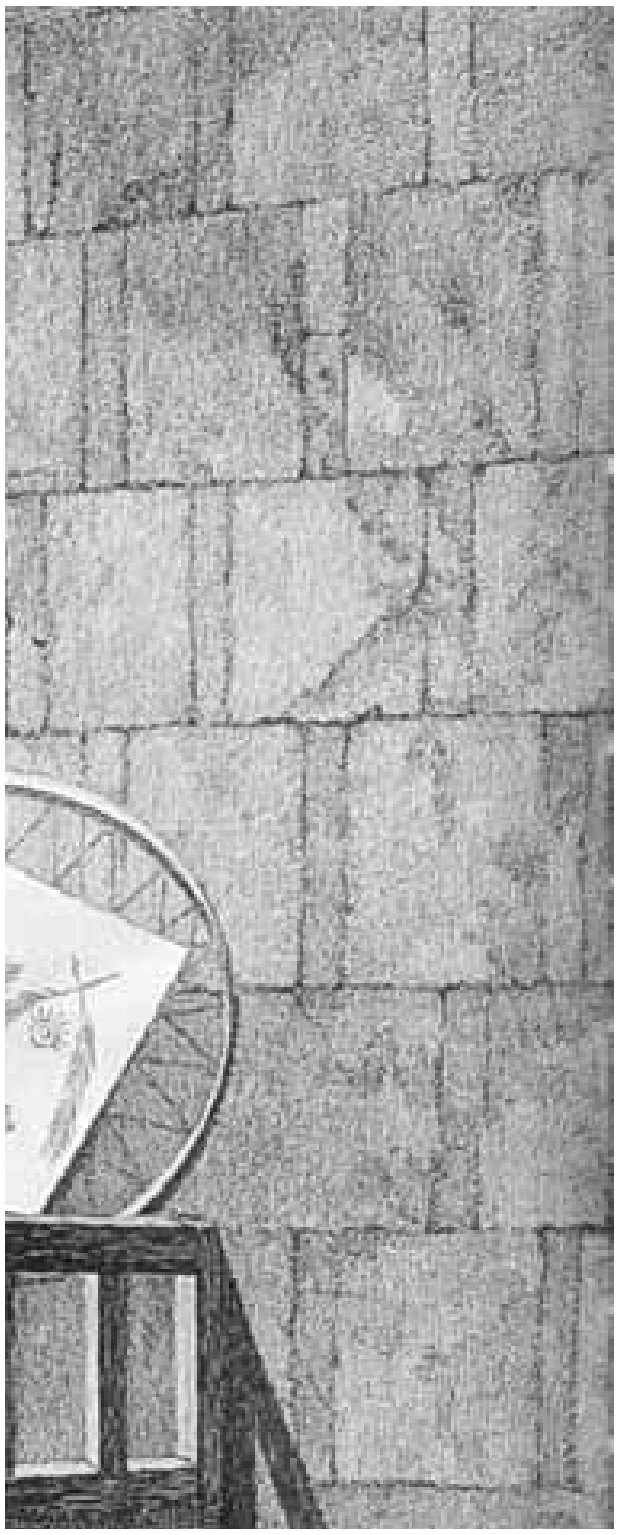

الحمامات والمساجد والمدارس

وأمّا حمّاماتها فلا تُحْصَى عدةً، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنّها بين الشرقية والغربيّة نحو الألفي حمام، وأكثرها مطليّة بالقار مسطّحة به، فيخيّل للناظر أنّه رخام أسود صقيل. وحمّامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القارِ عندهم، لأن شأنه عجيب، يُجلَبُ من عينٍ بين البصرة والكوفة، وقد أَنْبَطَ اللّـه ماء هذه العين ليتولّد منه القار، فهو يصير في جوانبها كالصّلصال، فيُجْرَف ويُجْلَب وقد انْعقد، فسبحان خالق ما يشاء، لا إله سواه.

وأمّا المساجد بالشرقيّة والغربيّة فلا يأخذها التقدير فضلاً عن الاحصاء.

والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلّها بالشرقيّة، وما منها مدرسة إلاّ وهي يقصرُ القصرُ البديع عنها، وأعظمها وأشهرها النّظاميّة، وهي التي ابتناها نِظام المُلْك، وجُدّدت سنة أربع وخمس مئة[٩٠]. ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعَقارات مُحْبَسَة تتصَيّر إلى الفقهاء المدرِّسين بها، ويُجْرُون بها على الطّلَبَة ما يقوم بهم، ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلّد، فرحم اللّـه واضعها الأول ورحم من تبع ذلك السَّنن الصالح.

أبواب الشرقية

وللشرقيّة أربعة أبواب: فأوّلها، وهو في أعلى الشطّ، باب السلطان، ثمّ باب الظّفَريّة، ثمّ يليه باب الحَلْبة، ثمّ باب البَصَليّة. هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشطّ إلى أسفله، وهو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة. وداخلَها في الأسواق أبواب كثيرة.

وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يوصف، وأين هي مما كانت عليه؟ هي اليوم داخلة تحت قول حَبِيب[٩١]:

"لا أنتَ أنتَ ولا الدّيارُ ديارُ"

(.....)

مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلاّ بعض جهات منها هي اليوم معمورة. وقد أطنب المسعودي، رحمه اللّـه، في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها. وهي كما وصف وإن لم يبق إلاّ الأثر من محاسنها، واللّـه وارِثُ الأرض ومَنْ عليها، لا إله غيره. فأقمنا بهذا الموضع طولَ يومنا مستريحين، وبيننا وبين مدينة

تَكْريت مرحلة، ثم رحلنا منه وأسرينا الليل كله، فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وهو أول يوم من يوني[٩٢]، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم.

ذكر مدينة تكريت، حرسها اللّه تعالى

هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حَفيلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصّة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقِسْطاً في الموازين من أهل بغداد، ودجلة منها في جوفيّها، ولها قلعة حصينة على الشطّ هي قصَبتها المنيعة، ويطيف بالبلد سور قد أثّر الوهن فيه. وهي من المدن العتيقة المذكورة.

ورحلنا مع عشي اليوم المذكور وأسرينا طول الليل، وأصبحنا يوم السبت الموفي عشرين منه بشطّ دجلة، فنزلنا مريحين. ومن ذلك الموضع يُستصحَب الماء ليوم وليلة، فاستصحبناه. ورحلنا ذلك اليوم ضحوة، فأسرينا إلى الليل، ونزلنا لأخذ نَفَس راحة واختلاس سِنَة نوم، فهوَّمْنا[٩٣] هنيهة، ورحلنا وأسْأدنا[٩٤] إلى الصباح. وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النّهار من يوم الأحد بعده، فنزلنا قائلين بقرية على شطّ دجلة تعرف بالجُدَيدة، وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليها تعرف بالعَقْر وعلى رأسها ربوة مرتفعة كانت حصناً لها، وأسفلها خان جديد بأبراج وشُرَف حفيل البنيان وثيقه. والقرى والعمائر من هذا الموضع إلى المَوْصل متّصلة. ومن هنا ينتثر انتظام الحاج في المشي فينبسط كلّ في طريقه متقدّماً ومتأخّراً، وبطيئاً ومستعجلاً، آمناً مطمئنّاً.

فرحلنا منها قريبَ العصر، وتمادى سيرنا إلى المغرب، ونزلنا آخذين غفوة سِنَة خلال ما تتعَشّى الإبل. ورحلنا قبل نصف الليل وأدلجنا إلى الصباح.

وفي ضحوة هذا اليوم، وهو يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر، والرابع ليونيه، مررنا بموضع يعرف بالقَيّارة من دجلة، وبالجانب الشرقي منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل، فيه وَهْدة من الأرض سوداء كأنّها سحابة قد أنبط اللّه فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار، وربّما يقذف بعضها بحَباب منه كأنّها الغَلَيان، ويُصْنَع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض أسود أملس، صقيلاً رطباً، عَطِرَ الرائحة، شديد التعلّك، فيلْصَق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس، وحول تلك العيون بِرْكة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً، فشاهدنا عجباً كنّا نسمع به فنستغرب سماعه.

وبمقربة من هذه العيون على شطّ دجلة عين أخرى منه كبيرة، أبصرنا على البعْد منها دخاناً، فقيل لنا: إنّ النارَ تُشْعَل فيه إذا أرادوا نقله فتُنشّف النار رطوبته المائيّة وتعقّده، فيقطعونه قَطَرات ويحملونه، وهو يعمّ جميع البلاد إلى الشّام إلى عكّة إلى جميع البلاد البحرية، واللّـه يخلق ما يشاء، سبحانه تعالى جَدّه، وجلّت قدرته، لا ربّ غيره. ولا شكّ أنّ على هذه الصفة هي العين التي ذُكر لنا أنّها بين الكوفة والبصرة، وقد ذكرنا أمرها في هذا التقييد، ومن هذا الموضع إلى الموصل مرحلتان.

وأجزنا تلك العيون القاريّة ونزلنا قائلين، ثم رحنا وسرنا إلى العشيّ، ونزلنا بقرية تعرف بالعُقيبة، ومنها تُصَبّح الموصل إن شاء اللّـه. فأسرينا منها بعد نصف الليل ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر، والخامس من يونيه، ونزلنا برَبَضِها في أحد الخانات بمقربة من الشطّ.

ذكر مدينة الموصل، حرسها اللّـه تعالى

هذه المدينة عَتيقَة ضَخْمَة، حصينة فَخْمَة، قد طالت صحبتها للزمن، فأخذت أُهْبة استعدادها لحوادث الفِتَن، قد كادت أبراجُها تلتقي انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض، وباطن الداخل منها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة بجداره المُطيف بالبلد كلّه، كأنّه قد تمكّن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه، وللمُقاتِلَة في هذه البيوت حِرْز وقاية، وهي من المرافق الحربيّة. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رُصّ بناؤها رصّاً، ينتظمها سور عتيق البنية مشيّد البروج، وتتّصل بها دور السلطان. وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متّسع يمتدّ من أعلى البلد إلى أسفله. ودجلة شرقيّ البلد، وهي متّصلة بالسور، وأبراجه في مائها.

وللبلدة رَبَضٌ كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق، وأحدث فيه بعض أمراء البلدة، وكان يعرف بمجاهد الدين، جامعاً على شطّ دجلة، ما أرى وُضع جامع أحفل منه، بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه، وكلّ ذلك نقش في الآجرّ. وأمّا مقصورته فتذكّر بمقاصير الجنّة، ويطيف به شبابيك حديد، تتّصل بها مصاطب تُشرِف على دجلة لا مَقْعَدَ أشرف منها ولا أحسن، ووصفه يطول، وإنّما وقع الإلماع بالبعض جرياً إلى الاختصار، وأمامه مارستان حفيل من بناء مجاهد الدين المذكور.

وبنى أيضاً داخل البلد وفي سوقه قَيْسَاريّة للتجّار، كأنّها الخان العظيم، تنغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض، قد جُلي ذلك كلّه في أعظم صورة من البناء المُزَخرف الذي لا مثيل له. فما أرى في البلاد قيساريّة تعدلها.

وللمدينة جامعان: أحدهما جديد، والآخر من عهد بني أميّة. وفي صحن هذا الجامع قبّة، داخلها سارية رخام قائمة، قد خُلْخِل جيدُها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، وفي أعلاها خُصّة[95] رخام مثمّنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروجَ انزعاج وشدة، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة كأنّه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة. ويُجمّع في هذين الجامعين القديم والحديث، ويجمّع أيضاً في جامع الرّبض. وفي المدينة مدارس للعلم نحو الستّ أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنّها القصور المشرفة. ولها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض.

وخصّ اللّـه هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد جِرْجِس، صلى اللّـه عليه وسلّم، وقد بُني فيه مسجد، وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه. وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر، يجده المارّ إلى الجامع من باب الجسر عن يساره. فتبرّكنا بزيارة هذا القبر المقدّس والوقوف عنده، نفعنا اللّـه بذلك.

وممّا خصّ اللّـه به هذه البلدة أن في الشرق منها إذا عبرتَ دجلة على نحو الميل تلّ التّوْبة، وهو التلّ الذي وقف به يونس، عليه السلام، بقومه ودعا ودعوا حتى كشف اللّـه عنهم العذاب، وبمقربة منه على قدر الميل أيضاً العين المباركة المنسوبة إليه، ويقال: إنّه أمر قومه بالتّطهّر فيها وإضْمار التوبة، ثمّ صعدوا على التلّ داعين.

وفي هذا التلّ بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات، يضمّ الجميع باب واحد، وفي وسط ذلك البناء بيت يَنسدل عليه ستر وينغلق دونه باب كريم مرصّع كلّه، يقال: إنّه كان الموضع الذي وقف فيه يونس، صلى اللّـه عليه وسلّم، ومحراب هذا البيت يقال: إنّه كان بيته الذي كان يتعبّد فيه، ويطيف بهذا البيت شمع كأنّه جذوع النخل عِظَماً، فيخرج الناس إلى هذا الرباط كلّ ليلة جمعة ويتعبّدون فيه. وحول هذا الرباط قرى كثيرة، ويتّصل بها خراب عظيم، يقال: إنّه كان مدينة نِينَوَى، وهي مدينة يونس، عليه السلام، وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر، وفُرَجُ الأبواب فيه بَيّنَة، وأكوام أبراجه مُشْرِفة. بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر، ثم صبّحنا العين المباركة، وشربنا من مائها وتطهّرنا فيها وصلّينا في المسجد المتّصل بها، واللّـه ينفع بالنيّة في ذلك بمنّه وكرمه.

وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البرّ، فلا تلقى منهم إلاّ ذا وَجْه طَلْق وكلمة ليّنة، ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم. فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة أيام.

وفي عشيّ اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور، رحلنا منها على دوابّ اشتريناها بالموصل تفادياً من معاملة الجمّالين على أنّ القَدَر المحمود لم يسبّب لنا إلاّ صحبة الأشْبَه[96] منهم، ومن شكرناه على طول الصحبة، وتماديها من مكة، شرفها اللّـه، إلى الموصل، فأسرينا ليلةَ السبت إلى بُعَيد نصف الليل ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور، وقِلْنا بقرية تعرف بعَيْن الرّصد، وكان مَقيلنا تحت جسر معقود على وادٍ يتحدّر فيه الماء، وكان مقيلاً مباركاً. وفي تلك القرية خان كبير جديد. وفي محلاّت الطريق كلها خانات. واتّفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة، وأسرينا منها وأصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف بالمُوَيْلِحة، وأسرينا منها وبتنا بقرية كبيرة تعرف بِجُدَال لها حصن عتيق. وفي يومنا هذا رأينا، عن يمين الطريق، جبل الجُوديّ المذكور في كتاب اللّـه تعالى[97] الذي استوت عليه سفينة نوح، عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل. ثمّ رحلنا في السّحَر الأعلى من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر، فكان مبيتنا في قرية من قرى نَصِيبين، ومنها إليها مرحلة، ويعرف الموضع المذكور بالكلاي.

ذكر مدينة نصيبين، حرسها اللّـه تعالى

شهيرة العتاقة والقِدَم، ظاهرها شبابن وباطنها هَرَم، جميلة المنظر، متوسّطة بين الكبر والصغر، يمتدّ أمامها وخلفها بسيط أخضر مدّ البصر، قد أجرى اللّـه فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطّرد في نواحيه، وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السّوَار، والحدائق تنتظم بحافّتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فرحم اللّـه أبا نُوّاس الحسن بن هانئ حيث يقول:

طابتْ نصيبينُ لي يوماً فطبتُ لها؛ يا ليت حظّي من الدنيا نصيبينُ

فخارجها رياضيّ الشمائل، أندَلُسيّ الخَمَائل، يَرِفّ غَضارة ونَضارة، ويتألّق عليه رونقُ الحضارة، وداخلها شَعَث البادية بادٍ عليه، فلا مَطْمَح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال، ولا مَسْحة جمال. وهذا النهر ينسرب إليها من عين مَعِينة منبعها بجبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعَمَائرها ويتخلّل البلدَ منها جزء، فيتفرّق على شوارعها ويَلِج في بعض ديارها، ويصل إلى جامعها المكرّم منه سَرَبٌ يخترق صحنه، وينصب في صهريجين: أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقيّ منه، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع.

وعلى النهر المذكور جسر معقود من صُمّ الحجارة يتّصل بباب المدينة القبلي. وفيها مدرستان ومارستان واحد، وصاحبها معين الدين أخو عزّ الدين صاحب الموصل، ابنا أتابك. ولمعين الدين أيضاً مدينة سِنْجضار، وهي عن يمين الطريق إلى الموصل.

ويسكن في إحدى الزّوايا الجَوْفيّة من جامعها المكرّم الشيخ أبو اليَقْظان الأسود الجسد الأبيض الكبد، أحد الأولياء الذين نوّر اللّـه بصائرَهم بالإيمان، وجعلهم من الباقيات الصالحات في الزمان، الشهير المقامات، الموصوف بالكرامات، نِضْو[98] التبتّل والزهادة، ومن أخلقتْ جِدّته العبادة، قد اكتفى بنسج يده، ولا يدّخر من قوت يومه لغده؛ أسعدنا اللّـه بلقائه، وأصحبنا من بركة دعائه عشيّ يوم الثلاثاء مستهلّ ربيع الأول، فحمدنا اللّـه عزّ وجلّ على أن مَنَّ علينا برؤيته، وشرّفنا بمصافحته، واللّـه ينفعنا بدعائه، إنّه سميع مجيب، لا إله سواه.

فكان نزولنا بها في خان خارجها، وبتنا بها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول. ورحلنا صبيحتَه في قافلة كبيرة من البغال والحمير: حَرّانيين وحَلَبيين وسواهم من أهل البلاد، بلاد بكر وما يليها، وتركنا حاجّ هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال، فتمادى سيرنا إلى أول الظهر، ونحن على أهبة وحذر من إغارة

الأكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين إلى مدينة دُنَيْصَر يقطعون السبيل ويسعون فساداً في الأرض، وسُكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة، ولم يُعِن اللّـه سلاطينَها على قمعهم وكفّ عاديتهم، فهم ربّما وصلوا في بعض الأحيان إلى باب نصيبين، ولا دافعَ لهم ولا مانع إلا اللّـه، عزّ وجلّ. فقلْنا يوم الأربعاء المذكور، ورأينا ذلك اليوم، عن يمين طريقنا، بقرب من صفح الجبل، مدينة دارَى العتيقة، وهي بيضاء كبيرة، لها قلعة مشرفة. ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة ماردِين، وهي في صفح جبل في قُنّته قلعة لها كبيرة هي من قلاع الدنيا الشهيرة، وكلتا المدينتين معمورة.

ذكر مدينة حلب، حرسها اللّـه تعالى

بلدة قدرها خَطير، وذكْرُها في كلّ زمان يَطير، خُطّابها من الملوك كثير، ومحلّها في التّقديس أثير[٩٩]، فكم هاجَت من كفاح، وسُلّت عليها من بيض الصّفَاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزّهت حصانةً أن تُرامَ أو تستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيّعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكّانُها قديماً وعُمّارها؟ وتلك دار مملكتها وفِناؤها، فأين أمراؤها الحَمْدانيّون وشعراؤها؟ أجَلْ، فَنِيَ جميعُهم، ولم يأنِ[١٠٠] بعدُ فَناؤها! فيا عجَبا للبلاد تَبْقى وتَذْهب أملاكُها، ويهلكون ولا يُقْضَى هلاكُها، تُخْطَب بعدهم فلا يتعذّر ملاكُها[١٠١]، وتُرام فيتيسّر بأهون شيء إدراكُها. هذه حلب، كم أدخلت من ملوكها في خبر كان، ونسخت ظَرْف الزمان بالمكان، أُنّث اسمها فتحلّت بزينة الغَوَان، ودانت بالغَدْر فيمن خان، وتجلّت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات! هيهات! سيَهرم شبابها، ويُعْدَم خُطّابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها، وتتطرّق جنبات الحوادث إليها، حتى يَرِث اللّـه الأرض ومن عليها، لا إله سواه، سبحانه جلّت قدرته.

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده، فَلْنعُد إلى ما كنا بصدده، فنقول: إنّ من شرف هذه القلعة أنه يُذكَر أنّها كانت قديماً في الزمان الأوّل ربوةً يأوي إليها إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبيّنا الصلاة والتّسليم، بغُنيمات له فيحلبُها هنالك ويتصدّق بلبنها فلذلك سمّيت حَلَب، واللّـه أعلم. وبها مشهد كريم له يقصده الناس ويتبرّكون بالصلاة فيه.

ومن كمال خلالها المشتَرَطة في حصانة القلاع أنّ الماء بها نابع، وقد صُنع عليه جُبّان، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبد الدهر، والطعام يصبر فيها الدهرَ كلّه، وليس في شروط الحصانة أهمّ ولا آكَد من هاتين الحَلَّتين. ويطيف بهذين الجبّين المذكورين سُوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مَدَى عمقه والماء ينبع فيه. وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن ننتهي إلى وصفه. وسورها الأعلى كلّه أبراج منتظمة، فيها العَلالي المنيفة، والقِصاب[١٠٢] المشرفة، قد تفتّحت كلّها طِيقاناً. وكلّ برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانيّة، والمنازل الرفيعة الملوكيّة.

وأمّا البلد فموضوعه ضخم جدّاً، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متّصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط[١٠٣] صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنيّة، وكلّها مسقّف بالخشب، فسكّانها في ظلال وارفة. فكلّ سوق منها تقيّد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز[١٠٤] تعجّباً.

وأمّا قَيْساريّتها فحديقة بستان نظافةً وجمالاً، مُطيفة بالجامع المكرّم، لا يتشوّق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضيّة. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتّصل السماط خزانةً واحدة وتخلّلتْها شُرَف خشبية بديعة النقش وتفتّحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر. وكلّ سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم.

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاطٌ متّسع مفتّح كلّه أبواباً قَصْرِيّة الحسن إلى الصّحن، عددُها ينيف على الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حسنُ منظرها، وفي صحنه بئران مَعِينان. والبلاط القبليّ لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتّساع رائق الانشراح. وقد استفرغت الصنعة القرنصيّة جهدَها في منبره، فما أرى في بلدٍ من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتّصلت الصنعة الخشبيّة منه إلى المحراب فتجلّلت صفحاته كلّها حسناً على تلك الصفة الغريبة. وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتّصل بسَمْك[١٠٥] السقف وقد قُوّس أعلاه وشُرّف بالشُّرَف الخشبية القرنصيّة، وهو مرصّع كلّه بالعاج والآبنوس، واتّصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون

أن يُتبَيّن بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف.

ويتّصل به من الجانب الغربي مدرسةٌ للحنفيّة تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى. وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يُلْحَظ فيها أن جدارها القبلي مفتّح كلّه بيوتاً وغُرَفاً ولها طِيقان يتّصل بعضها ببعض، وقد امتدّ بطول الجدار عَريش كرْم مُثْمِر عنباً، فحصل لكلّ طاق من تلك الطيقان قسطُها من ذلك العنب متدلّياً أمامها، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متّكئاً دون كلفة ولا مشقّة. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس. ولها مارستان.

وأمرها في الاحتفال عظيم، فهي بلدة تليق بالخلافة، وحسنها كلّه داخل لا خارج لها إلا نُهَيْر يجري من جوفيها إلى قبليّها ويشقّ رَبضها المستدير بها، فإن لها ربضاً كبيراً فيه من الخانات ما لا يُحْصَى عددُه. وبهذا النّهر الأرحاء، وهي متّصلة بالبلد وقائمة وسط ربضه. وبهذا الربض بعض بساتين تتّصل بطوله. وكيفما كان الأمر فيه داخلاً وخارجاً فهو من بلاد الدنْيا التي لا نظير لها، والوصف فيه يطول.

فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان أبي الشكر، فأقمنا به أربعة أيام ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور، والثامن والعشرين ليونيه. ووصلنا قنّسْرين قبيل العصر، فأرحنا بها قليلاً ثمّ انتقلنا إلى قرية تعرف بتلّ تاجر، فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه.

وقنّسْرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان، لكنّها خربت وعادت كأن لم تغن بالأمس، فلم يبق إلا آثارها الدارسة، ورسومها الطامسة، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنّها على محرث عظيم مدّ البصر عرضاً وطولاً. وتشبهها من البلاد الأنْدلسيّة جَيّان، ولذلك يُذكَر أنّ أهل قنَسْرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جَيّان تأنّساً بشبه الوطن وتعلّلاً به مثلما فُعِل في أكثر بلادها، حسبَ ما هو معروف.

ثمّ رحلنا من ذلك الموضع، عند الثلاث الماضي من الليل، فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين في خان كبير يعرف بخان التركمان، وثيق الحصانة. وخانات هذا الطريق كأنّها القلاع امتناعاً وحصانة، وأبوابها حديد، وهي من الوثاقة في غاية. ثم رحلنا من هذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتَمْنَى في خان وثيق على الصفة المذكورة.

ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الأول المذكور، وهو آخر يوم من يونيه، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين، يوم الجمعة المذكور، بلاد المَعَرّة، وهي سواد كلّها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتّصل التفاف بساتينها وانتظام قُرَاها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد اللّه وأكثرها أرزاقاً. ووراءها جبل لُبنان وهو سامي الارتفاع، ممتدّ الطول، يتّصل من البحر إلى البحر.

وجبل لبنان المذكور هو حدّ بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأنّ وراءه أنْطاكِيَة واللاذقية

وسواهما من بلادهم، أعادها اللّـه للمسلمين، وفي صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد، هو للإفرنج، ويغيرون منه على حَمَاة وحِمْص، وهو بمرأى العين منهما. فكان وصولنا إلى مدينة حَمَاة في الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور، فنزلنا بربضها في أحد خاناته.

ذكر مدينة حماة، حماها اللّـه تعالى

مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان، غير فسيحة الفناء، ولا رائقة البناء، أقطارها مضمومة، وديارها مركومة، لا يَهَش البصر إليها، عند الإطلال عليها، كأنّها تُكِنّ بهجتها وتخفيها، فتَجد حسنها كامناً فيها، حتى إذا جُسْت خلالها، ونَقّرت[١٠٦] ظِلالها، أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً، تتسع في تدفّقه أساليبُه، وتتناظر بشطّيه دواليبُه، قد انتظمت طُرّتيه، بساتين تتهدّل أغصانها عليه، وتلوح خُضرتها عِذاراً بصفحتيه، ينسرب في ظلالها، وينساب على سَمْت اعتدالها، وبأحد شطّيه المتّصل بربضها مطاهرُ منتظمة بيوتاً عدّة، يخترق الماء من أحد دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها. وعلى شطّه الثاني المتّصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فُتِح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس إليه، وتتقيّد الأبصار لديه. وبإزاء ممرّ النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع، سُرِّب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها، فهي لا تخاف الصّدَى[١٠٧]، ولا تتهيّب مرام العِدَى.

وموضوع هذه المدينة في وَهْدة من الأرض عريضة مستطيلة، كأنّها خندق عميق، يرتفع لها جانبان: أحدهما كالجبل المطلّ، والمدينة العليا متّصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة، قد تولّى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كلّ عدوّ الأمان، والمدينة السفلى تحت القلعة متّصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه، وكلتا المدينتين صغيرتان. وسور المدينة العليا يمتدّ على رأس جانبها العليّ الجبليّ ويطيف بها.

وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأنّ جانبها المتّصل بالنهر لا يحتاج إلى سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصمّ الحجارة يتّصل من المدينة السفلى إلى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس ومارستان على شطّ النهر بإزاء الجامع الصغير.

وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الأعناب، وفيه المزارع والمحارث، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح. والبساتين متّصلة على شطّي النهر، وهو يسمّى العاصي، لأنّ ظاهره انحداره من سفل إلى علو، ومجراه من الجنوب إلى الشمال، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها.

فكان مقامنا بحماة إلى عشيّ يوم السبت المذكور، ثمّ رحلنا منها وأسرينا الليل كلّه وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور على جسر كبير معقود من الحجارة، وعليه مدينة رَسْتَن التي خرّبها عمر بن الخطّاب، رضي اللّـه عنه. وآثارها عظيمة. ويذكر الروم القسطنطينيون أنّ بها أموالاً جمّة مكنوزة، واللّـه أعلم بذلك، فوصلنا إلى مدينة حِمْص مع شروق الشمس من يوم الأحد الموفي عشرين لربيع الأوّل، وهو أوّل يوليه[١٠٨]، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل.

ذكر مدينة حمص، حرصها اللّـه تعالى

هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نُزْهة لعين مُبْثرها من النظافة والملاحة، موضوعة في بسيط من الأرض عريض مَدَاه، لا يخترقه النسيم بمَسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه، أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر، ولا ظلّ ولا ثمر، فهي تشتكي ظماءها، وتستقي على البعد ماءها، فيُجْلب لها من نُهَيْرها العاصي، وهو منها بنحو مسافة الميل، وعليه طُرّة بساتين تجتلي العين خُضْرتها، وتستغرب نضرتها، ومنبعه في مغارة بصفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بَعْلَبَكَ، أعادها اللّـه، وهي عن يمين الطريق إلى دمشق.

وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرّس بالعدوّ لمجاورتهم إيّاه، وبعدهم في ذلك أهل حلب. فأحمدُ خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفُه وتجسيمُه، فكأنّ الهواء النجديّ في شقيقه وقَسِيمه.

وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مُطيعة، قد تميّزت وانحازت بموضوعها عنها. وبشرقيّها جبّانة فيها قبر خالد بن الوليد، رضي اللّـه عنه، هو سيف اللّـه المسلول، ومعه قبر ابنه عبدالرحمن، وقبر عبيد اللّـه بن عمر، رضي اللّـه عنهم. وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود، وأبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأناقة، تكتنفها الأبراج المشيّدة الحصينة.

والطريق من حمص إلى دمشق قليل العمارة إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات، فأقمنا بها يوم الأربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر، ثمّ رحلنا وجزنا بثنية العُقاب ومنها يُشرَف على بسيط دمشق وغوطتها، وعند هذه الثنية مفرقُ طريقين: إحداهما التي جئنا منها، والثانية آخذة شرقاً في البرية على السماوة إلى العراق، وهي طريق قَصْد لكنها لا تُدْخَل إلا في الشتاء.

من عجيب أمر المشارقة

ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاج، على قرب مسافة الحجّ منهم، وتيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله. فهم يتمسّحون بهم عند صدورهم، ويتهافتون عليهم تبركاً بهم. ومن أغرب ما حُدّثْناه من ذلك: أنّ الحاجّ الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام، الّذي هو عام ثمانين، خرج الناس لتلقّيهم: الجمّ الغفير نساء ورجالاً، يصافحونهم ويتمسّحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها، وأخرجوا إليهم الأطعمة. فأخبرني من أبصر كثيراً من النساء يتلقّين الحاجّ ويناولنهم الخبز، فإذا عضّ الحاجّ فيه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركاً بأكل الحاج له ودفعن له عوضاً منه دراهم، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة ضدّ ما اعتدنا في المغرب في ذلك، وصُنع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك أو قريب منه. ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد، وإنّما وقع الإلماع بلمحة دالّة يُكتفى بها عن التطويل. وكلّ من وفّقه اللّـه بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن أحبّ ضَيْعة من الضّياع فيكون فيها طيّبَ العيش، ناعم البال، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء. ومتى سئِم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لُبْنان أو إلى جبل الجُوديّ فيلقى بها المُريدين المنقطعين إلى اللّـه، عزّ وجلّ، فيقيم معهم ما شاء، وينصرف إلى حيث شاء.

نصارى جبل لبنان

ومن العجب أن النّصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى اللّـه عزّ وجلّ فتجب مشاركتهم.

وهذا الجبل من أخصب جبال الدنْيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطّردة والظّلال الوارفة، وقلّما يخلو من التبتيل[١٠٩] والزهادة. وإذا كانت معاملة النصارى لضدّ ملّتهم هذه المعاملة فما ظنّك بالمسلمين بعضهم مع بعض.

هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك. ولا تُعْتَرَض الرَّعايا ولا التجّار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يُستوفَى الحديث عنه، واللّـه يُعلي كلمة الإسلام بمنّه.

دمشق وآثارها

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة في الجهة الغربيّة من البلد، وهي بإزاء باب الفَرَج من أبواب البلد، وبها جامع السلطان يُجَمّع فيه، وعلى مقربة منها، خارج البلد في جهة الغرب، ميدانان كأنّهما مبسوطان خَزّاً لشدّة خُضْرَتهما، وعليهما حَلَق، والنهر بينهما، وغَيْضَة[١١٠] عظيمة من الحَور متّصلة بهما، وهما من أبدع المناظر، يخرج السلطان إليهما ويلعب فيهما بالصّوَالجة[١١١] ويسابق بين الخيل فيهما، ولا مجال للعين كمجالها فيهما. وفي كلّ ليلة يخرج أبناء السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة.

وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمّام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها. وليس في هذه البلاد كلّها بلدة

أحسن منها للغريب، لأنّ المرافق بها كثيرة. وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية، واللّـه يبقيها دار إسلام بمنّه.

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضْعاً، ولا سيّما قَيْساريّاتها، وهي مرتفعات كأنّها الفَناديق مثقّفة كلّها بأبواب حديد كأنّها أبواب القصور، وكلّ قيساريّة منفردة بضبتها[١١٢] وأغلاقها الجديدة. ولها أيضاً سوق، يعرف بالسوق الكبير، يتّصل من باب الجابية إلى باب شرقي. وفيه بيت صغير جدّاً قد اتُّخذ مصلّى، وفي قبلته حجر يقال: إن ابراهيم، صلّى اللّـه عليه وسلّم، كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع.

ذكر مدينة بانياس، حماها اللّـه تعالى

وأكثر المُعترَضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدِّمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أنّ طائفة من أنجادهم غَزَتْ مع نور الدين، رحمه اللّـه، أحدَ الحصون فكان لهم في أخذه غنًى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المَكْسيّة ألزموها رؤوسهم، فكل مغربيّ يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج: إنّ هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نَرْزَأهم شيئاً، فلمّا تعرّضوا لحربنا وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، فللمغاربة في أداء هذا المكس

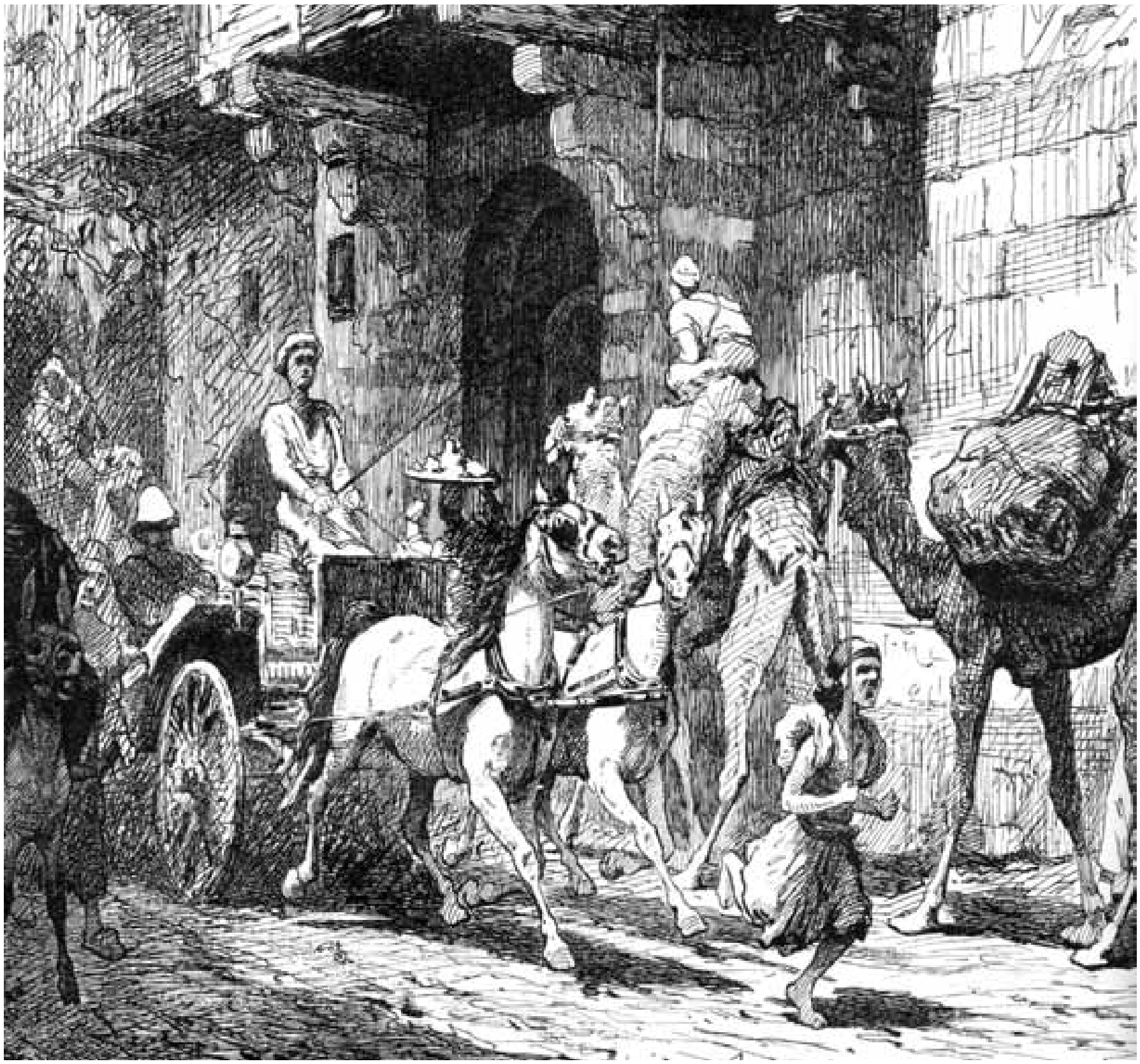

سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهّله عليهم ويخفّف عنتَهم عنهم.

ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين، وطريقنا كلّه على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة، سكّانها كلّها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ باللّـه من الفتنة، وذلك أنّهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها وجزية على كلّ رأس وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رَسَاتِيقُهم كلّها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أُشْرِبت الفتنةَ قلوبُ أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعُمّالهم، لأنّهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الاسلاميّ جورَ صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله، فإلى اللّـه المُشْتَكى من هذه الحال، وحسبُنا تعزية وتسليةً ما جاء في الكتاب العزيز: "إِنْ هِيَ إِلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلّ بِها مَنْ تَشاءُ وتَهْدي مَنْ تَشاء[113]".

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكّة، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدّم من جهة الإفرنْج على من فيها من عُمّارها من المسلمين. فأضاف جميع أهل القافلة ضيافةً حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متّسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدّمها لهم، فعمّهم بتكرمته. وكنّا فيمن حضر هذه الدعوة.

وبتنا تلك الليلة وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور، وهو الثامن عشر لشتنبر، مدينة عكة، وحُملنا إلى الديوان، وهو خان مُعَدّ لنزول القافلة، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتّاب الديوان من النّصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى، وهم يكتبون بالعربيّة ويتكلمون بها، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب، لقب وقع عليه لمكانه من الخُطّة، وهم يَعْرِفون به كلّ مُحتشِم متعيّن عندهم من غير الجند. وكل ما يُجبى عندهم راجع إلى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجّار رحالهم به ونزلوا في أعلاه، وطُلِب رَحْلُ مَنْ لا سلعة له لئلاّ يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء. وكلّ ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل. فنزلنا بها في بيت اكترياه من نصرانيّة بإزاء البحر، وسألنا اللّـه تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة.

ذكر مدينة صور

مدينة يُضرَب بها المثل في الحصانة، لا تُلْقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدّها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مَثابَة لأمانهم، هي أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها أَلْين في الكفر طبائع، وأَجْرَى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أَسْجَعُ[114]، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن.

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدَّث به، وذلك أنّها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البرّ يُفْضَى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في ستائر[115] مشيدة محيطة بالباب، وأمّا الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلاّ عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حُرّاس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلاّ على أعينهم، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع، ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنّها لا تحمل السفن الكبار حملَ تلك وإنّما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل.

فكان مقامنا بها أحد عشر يوماً، دخلناها يوم الخميس وخرجنا منها يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى المذكورة، وهو آخر يوم من شتنبر، وذلك أن المركب الذي كنّا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نَرَ الركوب فيه.

عرس إفرنجي في صور

ومن مشاهد زَخارف الدنْيا المحدَّ بها زفاف عَرُوس شاهدناه بصُور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفّوا سِماطَيْن عِند باب العَروس المُهْداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللّهْويّة، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، كأنّهما من ذوي أرحامها، وهي في أبْهى زيّ، وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفَّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لَبّتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حَلْيها وحُلَلها، تمشي فِتراً في فِتْر مشيَ الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ باللّـه من فتنة المناظر، وأمامها جِلّة رجالها من النّصارى في أفخر ملابسهم البهيّة، تُسْحَب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيّات يتهاديْن في أنْفَس الملابس ويَرْفُلن في أرفل الحلى، والآلاتُ اللّـهويّة قد تقدّمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلّعون فيهم ولا يُنْكرُون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دارَ بعلها، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة. فأدّانا الأتّفاق إلى رؤية هذا المنظر الزّخْرُفيّ المستعاذ باللّـه من الفتنة فيه.

شهر رجب الفرد، عرفنا اللّـه بركته ويمنه

استهلّ هلالُه ليلةَ الثلاثاء، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر، ونحن على ظهر المركب بمُرْسَى عَكّة منتظرون كمال وسْقه والإقلاع باسم اللّـه تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته. وتمادى مقامنا فيه مدّة اثني عشر يوماً لعدم استقامة الريح.

وفي مهبّ الريح بهذه الجهات سرّ عجيب، وذلك أن الريح الشرقية لا تهبّ فيها إلاّ في فصلَي الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلاّ فيهما، والتجّار لا ينزلون إلى عكّة بالبضائع إلاّ في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل، وفيه تتحرّك الريح الشرقيّة وتطول مدّتها إلى آخر شهر مايه، وأكثر وأقلّ بحسب ما يقضي اللّـه تعالى به. والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر، وفيه تتحرّك الريح الشرقيّة، ومدّتها أقصر من المدّة الربيعيّة، وإنّما هي عندهم خُلْسَة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقلّ. وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، والريح الغربيّة أكثرها دواماً. فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقيّة في هذين الفصلين انتظار وعد صادق، فسبحان المُبْدِع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه.

وكنّا طولَ هذه المدّة التي أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت في البرّ ونتفقّد المركب في الأحيان. فلمّا كان سَحَر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور، والثامن عشر لأكتوبر، أقلع المركب، وكُنّا على عادتنا في البرّ بائتين، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر، فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب في إعداد الماء والزاد وأن لا يفارق الإنسان رحله. فأصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر، فاكترينا للحين زورقاً كبيراً له أربعة مجاذيف واقلعنا نتبعه، وكانت مخاطرة عصم اللّـه منها، فأدركنا المركب مع العشيّ، فحمد اللّـه عزّ وجلّ على ما منّ به، وكان أوّلُ ذلك اليوم يوم شِدّتنا في هذا السفر الطويل، وآخره والحمد للّـه يوم فَرَجِنا، وللّـه الحمد والشكر على كلّ حال.

واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيّام، ثمّ هبّت علينا الريح الغربيّة من مَكْمنها دافعة في وجه المركب، فأخذ رئيسه ومُدبّره الرومي الجَنَوي، وكان بصيراً بصنعته، حاذقاً في شغل الرياسة البحريّة، يراوغها تارة يميناً وتارة شمالاً طمعاً أن لا يرجع على عقبه، والبحر في أثناء ذلك رَهْو[116] ساكن، فلمّا كان نصف الليل، أو قريب منه، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور، والسابع والعشرين لأكتوبر، تردّدت علينا الريح الغربيّة فقصفت قُرَيّة[117] الصاري المعروف بالأردمون وألقَت نصفَها في البحر مع ما اتّصل بها من الشراع، وعصم اللّـه من وقوعها في المركب، لأنّها كانت تشبه الصواري عظماً وضخامة، فتبادر البحريون إليها، وحُطّ شراع الصار الكبير، وعُطّل المركب من جَرْنه، وصِيحَ بالبحريين الملازمين للعُشاريّ[118] المرتبط بالمركب، فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة في البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها، وحصلنا في أمر لا يعلمه إلاّ اللّـه تعالى، وشرعوا في رفع الشراع الكبير، وأقاموا في الأردمون شراعاً يعرف بالدّلون[119]، وبتنا بليلة شهباء، إلى أن وَضُحَ الصباح، وقد منّ اللّـه عزّ وجلّ بالسلامة.

وشرع البحريون في إصْلاح قُرَيّة أخرى من خشبة كانت مُعَدّة عندهم، والريح الغربيّة على أوّل لجَاجها، ونحن بين اليأس والرجاء نتردّد مُغلّبين حسن الثقة بجميل صنع اللّـه تعالى وحَفيّ لطفه، ومعهود فضله، سبحانه، هو أهل ذلك، جلّت قدرته، وتناهت عظمته، لا إله سواه.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه تحرّكت الريح الشرقيّة نسيماً فاتراً عليلاً، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها، فكانت نَفَساً خافتاً، ثمّ بعد ذلك غَشّى البحرَ ضبابٌ رقيق سكنت له أمواجُه فعاد كأنّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قَوارير[120] ولم يبقَ للجهات الأربع نَفَس يتنسّم، فبقينا لاعبين على صفحة ماء، تخاله العين سَبيكة لُجَين، كأنّا نجول بين سماءين. وهذا الهواء الذي يسمّيه البحريّون الغَلّيني[121].

وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أوّل يوم من نونبر[122] العجمي، كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيراً أو كبيراً، ذكراً أو أُنثى، من شمعة في يده، وتقدّم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثمّ قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كلّه أعلاه وأسفله سُرُجاً متقدة، وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة، ثمّ أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن، واتّصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع والعشرين منه، فتحرّكت ريح شماليّة، فعاد المركب بها لجِرْيته واستبشرت النفوس، والحمد للّـه.

شهر شعبان المكرم، عرفنا اللّـه خيره

غُمّ هلالُه علينا، فأكملنا عدّة أيام رجب، فهو على الكمال من ليلة الخميس، بموافقة الثامن من نونبر، وقد تمّ لنا على ظهر البحر، ومن يوم إقلاعنا من عكّة، اثنان وعشرون يوماً حتى عَدِمنا الأنس، واستشعرنا القَنَط واليأس، وصُنع اللّـه عزّ وجلّ مأمول، ولطفه الحَفيّ بنا

كفيل بمنّه وكرمه. وقلّ الزاد بأيدي الناس، لكن هم من هذا المركب، بمنّة اللّـه، في مدينة جامعة للمرافق، فكلّ ما يُحتاج شراؤه يوجد، من خبز، وماء، ومن جميع الفواكه والأُدُم، كالرّمّان والسفرجل والبطّيخ السّندي والكُمَّثرى والشاه بلّوط والجوز والحمّص والباقِلاّء نَيّاً ومطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت، وغير ذلك ممّا يطول ذكره؛ عاينّا جميع ذلك يُباع. وفي خلال هذه الأيّام كلّها لم يظهر لنا برّ، واللّـه يأتي بالفرج القريب.

ومات فيه رجلان من المسلمين، رحمهما اللّـه، فقُذِفا في البحر، ومن البلغريّين اثنان أيضاً، ومات منهم بعد ذلك خلق كثير، وسقط منهم واحد في البحر حيّاً، فاحتمله الموج أسرعَ من خطفة البارق، وورث هؤلاء الأمواتَ من المسلمين والنصارى البلغريّين رئيسُ المركب، لأنّها سنّة عندهم في كلّ من يموت في البحر، ولا سبيل لوارث الميت إلى ميراثه. فطال عجبنا من ذلك.

وفي سَحَر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرّخ، والثالث عشر من نونبر، ظهرت لنا جبال في البحر، وقد اشتدّت الريح الغربيّة، وتوالى إعصارها، وكانت تتقلّب بالقبول والدّبُور. فألجأتْنا إلى أحد تلك الجبال، فأرسينا عنده. وسألنا عن الموضع، فأُعلمنا أنّه من جزائر الرمّانيّة. وهذه الجزائر تنيّف على الثلاث مئة وخمسين جزيرة، وهي إلى عمل صاحب القسطنطينية، والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين، لأنّهم لا صلحَ بينهم، فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدرَ يوم الاربعاء بعده. ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعضَ ساعة من النهار في الخبز واللحم بعد أمان أخذوه.

ثمّ أقلعنا يوم الأربعاء المذكور، وقد تمّ لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوماً، وظهر لنا يوم الخميس بعده برّ جزيرة أقْريطش، وهذه الجزيرة أيضاً لعمل صاحب القسطنطينية، وطولها ينيّف على الثلاث مئة ميل، وقد تقدّم ذكرها في سفرنا البحريّ إلى الإسكندريّة، فبقينا نجري بطولها وهي منّا على اليمين، والبحر في أثناء ذلك كلّه هائل، والريح لا توافق، ونحن ننتظر الفرج من اللّـه عزّ وجلّ بصبر جميل، ونرتقب منه جلّ جلاله معهودَ التيسير والتسهيل بمنّه ولطفه.

ثورة الريح الشمالية

وفي يوم السبت العاشر لشعبان المذكور، والسابع عشر لنونبر، انقطع عنّا برّ الجزيرة المذكورة، ونحن نجري بريح شمالية موافقة، فذَئِرَت[١٢٣] وعصفت فطار لها المركب بجناحيْ شراعه، والبحر بها قد جُنّ واستشرى لجاجُه، وقذفت بالزبد أمواجُه، فتخال غواربَه المتموّجة جبالاً مثلجة، ومع تلك استشعرت النفوس الأنس، وغلب رجاؤها اليأس، وقد كنّا مدّة الستّة وعشرين يوماً المذكورة، التي لم يظهر لنا فيها برّ، نَرجمُ الظنون، ونغازل المَنُون، حذراً من نفاد الزاد والماء، والحصول بين المُهْلِكَيْن الجوع والظماء، فمن قائل يقول: إنا قد مِلنا في جَرْيِنا إلى برّ المغرب، وهو برّ إفريقية، وآخر يزعم: أنّا قد مِلنا إلى برّ الأرض الكبيرة، برّ القسطنطينيّة وما يليها، ومنهم من يقول: إلى اللاذقيّة جهة الشام، ومنهم من يقول: إلى دمياط برّ الإسكندريّة. وكنّا نحذر أن تُلْجئنا الريح إلى إحدى جزائر الرمّانيّة الخالية، فنَشْتُو فيها، أو تضطرّنا الحال إلى المعمور منها. وليس في هذه الوجوه المتوقَّعة كلّها وجه فيه حظّ لمختار، حتى أتى اللّـه بالفرج، وأذهب الباس والياس، ومكّن في النفوس الإيناس، بعد مكابدة الأمرّين، ومقاساة البَرْحَين، فللّـه درّ القائل:

البحرُ مُرّ المَذاقِ صَعبٌ
لا جُعِلَتْ حاجَتي إليه
أليسَ ماءً ونحنُ طينٌ
فما عَسَى صَبرُنا عَلَيْه

ونحن الآنَ بفضل اللّـه تعالى نتطلّع البشرى بظهور برّ صقليّة، إن شاء اللّـه.

هوامش

(١) سنة ١١٨٢م. شلير: جبل بالأندلس من أعمال إلبيرة.
(٢) غرناطة: أعظم مدن إلبيرة.
(٣) جيان: مدينة بالأندلس.
(٤) قبذاق: مدينة من نواحي قرطبة بالأندلس. قبرة: كورة من أعمال الأندلس.
(٥) إستجة: كورة بالأندلس. أشونة: حصن بالأندلس من نواحي إستجة.
(٦) قصر مصمودة: رأس شمال إفريقية المقابل للأندلس.
(٧) يابسة: جزيرة نحو الأندلس.
(٨) هال: ثار.
(٩) الشآبيب، الواحد شؤبوب: وهو الدفعة من المطر.
(١٠) اربدت: تغير لونها.
(١١) استشرت: عظمت وتفاقم شرها.
(١٢) كفاء: مساو.
(١٣) بركان أتنا في صقلية.
(١٤) ملججين: أي جادين.
(١٥) أقريطش: كريت.
(١٦) أي حكمها.
(١٧) جزائر الحمام: بين السلوم وطبرق.
(١٨) المعارج: السلالم.
(١٩) المحارس، الواحد محرس: مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء.
(٢٠) الإجراء: المرتب.
(٢١) أتوار، الواحد تور: الشمعدان.
(٢٢) المصنع: المبنى قصراً كان أو حصناً.
(٢٣) البصيص: اللمعان. يصف: أراد يعكس.
(٢٤) تأجراً واحتساباً: أي طلباً للأجر.
(٢٥) يحلقون: يعقدون حلقات الدرس.
(٢٦) الحدثانية: نسبة إلى حدثان الدهر، وهي حوادثه وتقلباته.
(٢٧) الموحدون: الأسرة التي حكمت المغرب من ٥١٥ – ٦٦٨هـ، واستولت على الأندلس.
(٢٨) البيلة: حوض النافورة.
(٢٩) الغلوة: المدى الذي يذهبه السهم حين يرمى به.
(٣٠) العبيديون: الفاطميون.
(٣١) أغشت: أي أغسطس، آب.
(٣٢) قوله ٧٩ أي ٥٧٩هـ ١١٨٣م.
(٣٣) مايه: يريد شهر مايو، أيار.
(٣٤) أسكر: قرية بينها وبين الفسطاط يومان.
(٣٥) المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق هي بوصير.
(٣٦) المندوب، لعله من ندبه إلى الحرب: وجهه إليها.
(٣٧) بحر فرعون: البحر الأحمر.
(٣٨) يضحل: يرق.
(٣٩) مكنة: مستورة.
(٤٠) الرطب العنان: الطبع السلس.
(٤١) اقتصامها: انكسارها.
(٤٢) سنحت: لصقت بالأرض.
(٤٣) يسنيه: يسهله وييسره.
(٤٤) الزمام: لعله أراد السجل.
(٤٥) أي لا مثيل لها.
(٤٦) المبوأ: المنزل.
(٤٧) أراد بالدعوة الإبراهيمية الإسلام، نسبة إلى إبراهيم الخليل.
(٤٨) الصفح: الجانب والوجه.
(٤٩) الساج: شجر.
(٥٠) سورة آل عمران، الآية ٩٦.
(٥١) المضاوئ: مواضع للإضاءة.
(٥٢) مركنة: ذات أركان.
(٥٣) التكفيف: لفظة عامية يراد بها ما يكف من الثوب أي حاشيته.
(٥٤) يتطأمن: ينحني.
(٥٥) يحجر: يجعل عليه سور أو حاجز.
(٥٦) التقضيب: نحت صور القضبان. التشجير: نحت صور الأشجار. التوريق: نحت صور أوراق الشج
(٥٧) الصنع اليدين: الحاذق في العمل بهما.
(٥٨) الكاغد: الورق.
(٥٩) الجلمان: المقص.
(٦٠) الصفر: النحاس الأصفر.
(٦١) مظنة استجابة: يظن أنه موضع استجابة.
(٦٢) النكت: النقط.
(٦٣) البيدق: البوتقة.
(٦٤) التنور: مفجر الماء.
(٦٥) القد: المقدار.
(٦٦) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
(٦٧) سورة القصص، الآية ٥٧.
(٦٨) جلب الهند: ما يجلب منها.
(٦٩) السلجم: اللفت.
(٧٠) الصهريج: حوض الماء.
(٧١) الشلو: العضو والجسد من كل شيء.
(٧٢) المصانع، الواحدة مصنعة: ما يجمع فيها ماء المطر كالحوض.
(٧٣) أراد بالمسول مسايل الماء.
(٧٤) العهاد: المطر بعد المطر بحيث يدرك الآخر بلل الأول.
(٧٥) المذانب: الجداول والمسايل.
(٧٦) القرم: الشهوة الشديدة إلى اللحم. العيمة: الشهود الشديدة إلى اللبن.
(٧٧) الإرمال من الزاد: نفاده.
(٧٨) الوجد: الغنى.
(٧٩) مايه: مايو، أيار.
(٨٠) لعلها المستطاع، لأنه لا وجود للفظة الاستطاع في اللغة.
(٨١) إنحاء الحوادث عليها: معاودتها إياها.
(٨٢) المستوفز: الماضي المسرع. العقلة: الوقوف.
(٨٣) اللبة: موضع القلادة من الصدر.
(٨٤) الحريم: النساء.
(٨٥) يعلل: يضعف.
(٨٦) القارعة: الداهية.
(٨٧) أراد بالمجابيب الخصيان.
(٨٨) أراد باجتماع بها وجهه: ملأت لحيته وجهه.
(٨٩) الفنك: حيوان فروته أفضل أنواع الفراء.
(٩٠) ١١١٠ م.
(٩١) يعني أبا تمام.
(٩٢) يونيه: حزيران.
(٩٣) هومنا: نمنا قليلاً.
(٩٤) أسأدنا: أسرعنا السير، أو سرنا الليل دون توقف.
(٩٥) خصة: حوض.
(٩٦) الأشبه: الأحسن.
(٩٧) سورة هود، الآية ٤٤.
(٩٨) نضو: هزيل ضامر.
(٩٩) الأثير: المفضل، المكرم.
(١٠٠) يأني: يحين.
(١٠١) ملاكها: الزواج بها.
(١٠٢) لم نجد معنى للقصاب يوافق الكلام ولكن قوله فيما بعد: "تفتحت طيقاناً" يدل على أنه أراد بها غرفاً.
(١٠٣) السماط: الصف. وشيء يبسط ليوضع عليه الطعام. وجانب الطريق.
(١٠٤) المستوفز: المتهيئ للوثوب.
(١٠٥) السمك: الارتفاع.
(١٠٦) نقرت: بحثت.
(١٠٧) الصدى: العطش.
(١٠٨) يوليه: تموز.
(١٠٩) التبتيل: الانقطاع إلى اللّه.
(١١٠) الغيضة: الأجمة.
(١١١) الصوالجة، الواحد صولجان: العصا المعقوفة الرأس.
(١١٢) الضبة: حديدة عريضة يقفل بها الباب.
(١١٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.
(١١٤) أسجع: ألطف.
(١١٥) ستائر: حيطان.
(١١٦) رهو: ساكن.
(١١٧) القرية: عود الشراع الذي يجعل في عرضه من أعلاه.
(١١٨) العشاري: زورق النجاة.
(١١٩) الدلون: شراع صغير.
(١٢٠) سورة النمل، الآية ٤٤. والممرد: المصقول.
(١٢١) الغليني: الهواء الساكن. معربة.
(١٢٢) نونبر: تشرين الثاني.
(١٢٣) ذئرت: غضبت، يريد هاجت.